

يوميات الحزن العادي

Mahmoud Darwish

محمود درويش

محمود درويش

يوميّات الحزن العادي

DIARY OF PAIN SADNESS
BY
Mahmoud Darwish

edithion 4 in June 2007
edition 5 in January 2009

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb
www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-303-8

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعه الأولى: مركز الأبحاث الفلسطيني 1973

الطبعه الرابعة: طبعة جديدة ومنقحة حزيران/ يونيو 2007

الطبعة الخامسة : كانون الثاني /يناير 2009

المحتويات:

القمر لم يسقط في البئر

_ماذا تفعل يا أبي؟

* أبحث عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة.

_وهل تجده هنا؟

*أين أجده إذن! أنحني على الأرض وألتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات، في تشرين حبات الزيتون.

_ولكنك تلتقط الحصى!

* شيء كهذا يمرن الذاكرة والبصيرة. وما أدراك قد يكون هذا الحصى تكلس قلبي. وإذا لم يكن _ أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدي عن شيء حين ضاع ضيّعني. وإن مجرد البحث عنه دليل على أنني أرفض الاندماج في ضياعي. وعلى الطرف الثاني من المحاولة دليل على أنني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته.

_وماذا تفعل أيضاً يا أبي؟

* أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة إلى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد. نصير لغة قابلة للتجسيد.

_ألا تقول كلاماً آخر؟

* أقول لكنني لا أفهمه ,وتصير المرأة التي أخاطبها غربة ثانية.

_حين كنت صغيراً.. كنت تخاف القمر؟

* يقولون ذلك. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال يخافون القمر دائماً.

..لولاه لكنت يتيما قبل أواني. لم يكن قد سقط في البئر. كان أعلى من جبيني وأقرب من شجرة التوت التي توسطت دار جدي. وكان الكلب ينبح عندما يقترب .وحين دوّت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء. وحين ساقوني إلى القافلة الطويلة رافقنا القمر إلى طريق عرفت فيما بعد أنها طريق المنفى.
ولولاه – كما قلت لك – لضعت عن والدي.

_ماذا تذكر أيضا؟

*أذكر أني تعلمت السفر وحدي في سن مبكرة. سافرت أمي إلى عكا فغضبت لأنها تركتني. وكم كنت أحب عكا !كانت أبعد نقطة في العالم قبل سنين. وصارت الآن_ ويا للمفارقة_ أبعد نقطة في العالم مرة أخرى. كنت أحمل خمس سنين وأمشي على الشارع الأسود في اتجاه عكا.

_وكيف عرفت الاتجاه؟

*كان الشارع المعبّد السائر نحو الغرب لا يعني إلّا السفر إلى عكا. كان الحرّ شديداً فبكيت من الشمس والعطش. وجلست مرارا لأستريح فكرت بالعودة فخجلت من الهزيمة.

_ماذا كانت تعني الهزيمة لك؟

*أن أطلب شيئا ولا يتحقق. أن أبدأ ولا أكمل. وأكملت طريقي إلى عكا. ووقفت عند مدخلها أمام مفترق طرق. كان استخدام الاتجاه الذي جئت منه ساقطا من حسابي. جربت الإتجاه الجنوبي فأوصلني إلى هضبة رملية تطل على البحر. ليست أمي هنا. فعدت إلى المفترق .جربت الاتجاه الشمالي، فكان يقود إلى بيروت. وليست أمي هناك. فعدت إلى المفترق .جربت الاتجاه الغربي فأوصلني إلى قلب المدينة. دخلت مكاناً وطلبت ماء، فأسقوني وسألوني عمن أبحث فقلت: أبحث عن أمي.

_كيف يبحث طفل قروي عن أمه في مدينة مزدحمة؟

*كما فعلت أنا. كنت واثقاً من أنني سأجدها بين آلاف الوجوه، ولولا خوفي من المساء الذي صار يقترب لما عدت إلى القرية وحدي. ولكن طفلاً في الخامسة لا بد من أن يهزم. عدت إلى مفترق الطرق واستعملت الاتجاه الذي جئت منه خائباً. خشيت من الليل القادم من السهل فوقفت على حافة الشارع. وقفت سيارة شحن وسألتني إلى أين أنا ذاهب, فقلت إلى البروة. كانت أمي في البيت, وكان أهل البيت والجيران يبحثون عني في كل آبار القرية. حين يضيع الطفل فلا بد أن يكون قد سقط في بئر. بكت أمي وبكيت معها, وحين أكملت فرحتها ضربتني, فأخذني جدي وأعطاني حلوى ..وانتهى سفري الأول.

هذا هو طعم عكا الأول. دائماً أبحث فيها عن شيء لا أجده .فتشت فيها عن أمي, فكانت قد عادت إلى القرية. وبعد سنين فتشت فيها عن حبيبتي, فكانت تزف إلى رجل آخر. وفتشت فيها عن عمل، فكان الفقر يلاحقني. وفتشت فيها عن شعبي فوجدت الزنزانة والضابط الوقح. كانت آخر حدود العالم, وأولى المحاولات والخيبة. وكان سورها يتآكل في الزمن.

_تذكر شيئاً آخر عن بداية العالم ؟

*أذكر شكلاً غامضاً ساعدني على الاستعانة بالخيال والحلم. كان الواقع يتعرض لعملية انقطاع قبل أن يأخذ شكله النامي في وعيي. وفي ظروف لاحقة كان لزاماً عليَّ أن أعود إليه لأحتفظ بوجودي, فكان الحلم هو المكمِّل. وهذا ما يجعلني في حالة حلم دائم محدوداً بمبررات الضرورة, لا منطلقاً بأجنحة الوهم المترف.
تصير الأرض صخرة وعصفوراً في آنٍ واحد. فالواقع على حالته الراهنة _ حتى وإن لم يكن قانونياً _ لا يعود جزءاً منك بدون رباط الحلم الذي يصير أكثر واقعية من شجرة ثابتة. والحلم على حالته العامة_ وإن لم يكن مترفاً _ لا يعود حافزاً لك بدون ارتباط بصخرة مهما تغيّرت أشكالها. صحيح أن الأشياء لا تكون مقدسة إلى هذا الحدّ إلّا إذا كانت حالتها محكاً لانتمائك إلى الوجود, إلا إذا كانت موضع صراع. ولكن كونك محروماً منها ليس هو الحيوية الوحيدة لثمنها العزيز إلى هذا الحد. وإلّا, فكيف نفهم إقدام فقراء البلدان المستلبة على الموت في سبيل العودة إلى فقر قديم؟ ثمة شيء ننساه في زحمة التسابق على حفظ الجمل الثورية الجميلة. هذا الشيء هو الكرامة البشرية, ليس وطني دائماً على حق. ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقاً حقيقياً إلا في وطني.

ـ
لماذا تتحاشاني.. هل تبتعد عن الأيام القديمة؟

*لأفسر لك أني لا أدافع عن سعادة قديمة. ولا أتغنى بتعاسة ماضية. ليس للعمال وطن؟ ولكن للمحرومين من الوطن وطناً .ومن حسن حظنا _ ربما_ أن وطننا حق وجمال. إنه لم يأخذ هذا الشكل اللاذع في جماله من إسقاطات حرماننا عليه. إنه حلم في واقعه وواقع في حلمه. نحن لا نشتاق إلى فقر .ولكننا نشتاق إلى جنة. نشتاق إلى ممارسة إنسانيتنا في مكان لنا .

_قف عند هذه النقطة!

*لقد وقفت حياة آلاف الضحايا والشهداء عند هذه النقطة .لم يكونوا مخدوعين. بعض ما رآه، فمات من عدوى الحب. ولكن الخارطة ليست على خطأ دائماً، وليس التاريخ على خطأ دائماً. لماذا اجتمع الأنبياء والفقراء والغزاة على حبه حتى درجة القتل؟ إن الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الأبيض المتوسط مع خاصرة الكرمل ينتهي بولادة بحيرة طبريا. وهناك بحر، سموه البحر الميت لأنه ينبغي أن يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملّة. ومن شدة ما ازدحم الجليل الأعلى بالغابات، كان لابد أن تبرهن القدس على أن الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة .هذا هو وطني. ولم يكن والد صديقي المقيم في بيروت يبالغ حين شمَّ تفتّح أزهار الليمون في بيارات يافا في موعدها.. ومات!

- هو فردوس مفقود؟

*احذر هذا المصطلح. لأن القناعة به تسليم بحالة قانونية ووجودية بلغت حدّ النهاية. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق وبين الفردوس بالمعنى الفلسطيني هو خلو حالة الحنين والانتماء النفسي والشرعي من منطقة الصراع. ما دام الصراع قائماً، فإن الفردوس لا يكون مفقوداً، بل يكون محتلاً وقابلاً للاستعادة. لا أعني الارتكاز على مفهوم خسارة المعركة، وعدم خسارة الحرب الذي ينطوي على دفاع النفس أمام خسارة المعركة. ولكني أعني أنه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنه بهذا المفهوم، كما يعامل العرب الأندلس، وكما ينتظر المؤمنون الجائزة. إن بين فلسطين والأندلس فرقاً يشبه الموت. وأن بعض السياح الثوريين ممن ينظرون إلى المسألة من زاوية التشابه حسن بهذا المفهوم النيّة وسيئ النتيجة ينطلقون من موقع الجمالية الشكلية وضبط التضامن. إنهم سيبكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين إلى البندقية تعبيراً عن بعد المسافة بين فلسطين والأندلس، على انتهاك جمال الانسجام التاريخي. إن فكرة الفردوس المفقود تغري المفتقرين إلى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة، لأنه يشبهها ولأنه ممكن.

-ألم تقف، يوما، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة؟

*قبل هذا، لا تملك الطفولة دعوى في المكان. ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائماً وطنك، إلّا إذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية. إذا كانت الولادة فردية واصطناعية، فإن المكان يكون صدفة. وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود وإسرائيل في مكان واحد الآن. أن يتناسل غزاة في أرض الآخرين لا يؤلف حقا وطنيا لهم. ولكن أن يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها. والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع الآن، بسبب النفي، لا تغير شيئا حاسما في تركيب الأشياء. أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم إلّا إذا كان نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة .ومن هنا، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة.

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة. وقد ساعدني على عدم الاقتراب

من الإحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني، لأن رحيلي لم يكن اختيارياً. لم يكن سفراً. كان نفياً وطرداً. ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها ومقاومتها من داخلها بل في العودة إلى جذوري ..التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني إليها. نحن الآن في سن أكبر، وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني إلى ظروف المنفى الداخلية وحدها، فذلك يشكل انتصاراً لأسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم أن يوقع بين الجرحى وإدارة المستشفى .لا أقول هذا لأشيد بحسن الإدارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة يجب ألا يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا.

لم تكن قادراً على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك إلى أنك فلسطيني، وليس من حقك أن تتفوق في الدروس. كانت تلك الإهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات، تفهم عندها أن قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة. ولكنك في السن المبكرة إياها تلمست، بشكل غريزي، أن خلاصك من الإهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الإهانة. وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري– لا الصدفي – بعالمك الأول. فتحولت قريتك الغامضة ذات الأزقة الضيّقة الواقفة على مرتفع صغير في سهل عكا، إلى حلّ لمشكلة لا تفهمها. ومن هنا، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها، أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين، وأدلة على امتلاكك لشروط إنسانية لا تشكل سبباً لتعرضك إلى الإهانة. وكان إحساسك بهذا البرهان يلتهب، بشكل خاص، في أيام الأعياد. كان الأطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد. وكنت تقف مع أبيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس.

-متى حدث ذلك؟

*في عام 1949 .بعد عام على الرحيل.

-ولماذا لم يحدث في عام 1948.. في عام الرحيل؟

"آه. كنا سياحا يومها. كان جدي يحمل كيساً كبيراً من النقود، وينزهنا في لبنان.
يأخذنا إلى كروم التفاح لنختار الفاكهة المعلّقة على الشجر، ويأخذنا، كل أسبوع، إلى بيروت التي كانت أول مدينة أراها بعد عكا. لم تكن هجرة ..كانت سفراً ونزهة.
كنا ننتظر انتصار الجيوش العربية على الغزاة خلال أسابيع ونعود بعدها إلى البروة. لم نسكن

مخيماً، مررنا في رميش، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية. كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت. الليلة الأولى كانت في أحد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من" الضيوف" بيضا مقليا من إناء واحد. وفي جزين – حيث أقمنا – رأيت السواقي تسكن البيوت، ورأيت الشلال. وحين اشتد البرد هناك انتقلنا إلى الدامور وعبرنا كروم الموز، ولعبنا على الشاطيء، وسبحنا في البحر. عبرت الشارع الواسع يوما قبل أخي الذي لحق بي، فضربته سيارة لم تصبه بجروح ولكنها أصابته بذهول لم ينج منه إلّا بعد سنين. وكان جدي قارئا جيداً للصحف التي وعدته بالعودة القريبة. وكنا نتحلق حوله وهو يقرأ الأخبار بنبرة عالية ونظارة نازلة. وكانت الجريدة تنقله من حزم الأمتعة إلى التريث قليلاً ومن ثم إلى الإنتظار، حتى لاحظنا وهناً بطيئاً يزحف إلى نبرته التي أخذت بالانخفاض ونظارته التي أخذت بالارتفاع إلى مكانها الطبيعي. وفي ليالي الشتاء كان إخوان الغربة والسمر يتبادلون الرأي حول المعارك الدائرة على أرض فلسطين، وقرأوا عن سقوط البروة.

-ألم تسقط من قبل؟

*سقطت ليلة واحدة، ثم حرّرها أصحابها الفلاحون بأسلحتهم البدائية وبمساعدة من القرى المجاورة. وفور تحريرها استعدوا لجمع الحصاد الذي كان ينتظرهم على البيادر. ولكن جيش الإنقاذ استولى على القرية، بعد تحريرها، ولا نعرف كيف استلمها اليهود بعد ذلك.

بعد عشرين سنة، وبعد سقوط مدن عربية كثيرة لم تعجب آرائي التي عبّرت عنها بلغة عبرية لصديقي، رجلاً كان يجلس في المطعم، فانبرى للدفاع عن الظلم الإسرائيلي بذريعة ظنّها مفحمة. قال لي إنك لا تعرف العرب ولو كنت تعرفهم لما تكلمت عن العدل بهذه اللهجة. طلبت منه أن يزيدني علماً، فقطّب حاجبيه وسألني إن كنت قد سمعت بقرية اسمها البروة، قلت: لا، فأين هي؟ قال: لن تجدها على سطح الأرض، فقد نسفناها ومشطنا أرضها من الحجارة ثم حرثناها وأخفيناها تحت الأشجار. قلت: لإخفاء الجريمة؟ احتجَّ مصححاً: بل لإخفاء جريمتها تلك الملعونة. قلت: وما جريمتها؟ فقال: لقد قاومتنا.. حاربتنا. كلّفتنا خسائر كثيرة واضطررنا إلى احتلالها مرتين. في المرة الأولى، كنا نتناول طعام العشاء، وكان الشاي ساخناً، ففاجأنا الفلاحون واستردوها منا. كيف نقبل هذه الإهانة؟ أنت لا تعرف العرب وها أنذا أقول لك.

حين أخبرته أنني عربي وأنها قريتي حاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام. ثم دعاني لزيارة دكانه
الذي يعرض فيه للمزاد العلني الأمتعة والأدوات المنزلية المسروقة من مدينة القنيطرة.

بعد أيام، كانت مستوطنتان يهوديتان تحتفلان باليوبيل الفضي لنشوئهما على أرض البروة. وكنت أتحدث في مؤتمر صحافي عن الظلم اللاحق بالعرب، فتصدى لي مراسل صحيفة "الاستيطان". لوحّت له بنبأ الاحتفال، فحاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام.

هكذا هم ..يرتكبون الجريمة ويدفنوها. وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام إلى السلام.

"وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها. ومدناً لم تبنوها، فأقمتم بها، وكروماً وزيتوناً لم تغرسوها، وأنتم تأكلونها."

-وهل حدث أن زرتها بعد ذلك؟

*حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفراً ولا نزهة، وأن الحرب انتهت بسقوط كل شيء، وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود، وهي تتحول في يده إلى بطاقة الأغاثة، بدأ يشعر أن الخروج خطأ. صار يعي الغربة والنفي، فلجأ إلى استرداد الآمال المعلّقة على الجيوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي إلى أرضه بحضور عملي. هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون – وأنت أعزل إلّا من الحق، خلقت "وعي التسلل" إلى الأرض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة، من أجل تحقيق الحضور و التخلص من الإهانة. تسللنا في الليل الوعر تحت خطر الموت. لم نذهب سوية خوفا من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين إلى الخطر. التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك. ها نحن مرة أخرى في فلسطين. هذه هي العودة .لم نعرف أن حضورنا الجسدي في الوطن هو غياب في القانون الذي وضعه الغزاة بسرعة بالغة. سمونا "الحاضرين الغائبين"، كي لا يكون لنا حق في شيء. ولكننا عرفنا أن آلافا من العائدين كانوا يوضعون – فور إلقاء القبض عليهم – في شاحنات عسكرية ويقذف بهم إلى الحدود كما تقذف البضائع الفاسدة.

وكنا نعرف أن مئات منهم قتلت بالرصاص كي تكف عن محاولة التفكير بالعودة. وعرفنا أن زوج خالتي – مثلا – تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن. أيهما أكثر إيلاما: أن تكون لاجئاً في أرض سواك أم أن تكون لاجئا في وطنك! هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الإسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحراث الإسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده، لاستخراج الحنطة والعنب من أجل القادمين من كل أنحاء العالم، وهو يمنع من مجرد الحج إلى أرضه، هل يكون التراب قدسيا إلى هذا الحدّ؟ بالنسبة للفلسطيني نعم . تحاط القرى بسياج من الأنظمة العسكرية يكلف اختراقها سجنا وغرامة.

والقرى التي عوقبت بالهدم – وهي عشرات – إما بسبب خصوبة أرضها وإما بسبب مقاومتها السيف الطالع من التوراة – يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغيرات على سياج الأمن الإسرائيلي. من هنا، كان الوصول إلى القرية مستحيلا. اكتشفنا أن العودة لم تكن حلاً لمسألة معيشية ولا حلا لاغتراب نفسي.

ولكنها كانت تعميقا للحضور الذاتي وبديلا للنفي الاختياري ومجازفة في الاقتراب من أصول الحق والهوية. هذه هويتي وما أشد اغترابي. ولكن اغترابي هنا إيجابي لأن مصدره خارج عن إرادتي ولأني حاضر .والحرقة التي تشحن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحول إلى طاقة للرفض. وعلى الطريق من دير الأسد إلى عكا تقف البروة على الهضبة إياها. لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسما آخر. دلّتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين. ودلّتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين. ليس المكان مساحة فحسب. إنه حالة نفسية أيضاً. ولا الشجر شجر. إنه أضلاع الكفولة. كان البكاء ينهمر من

أطراف أصابعي أيضاً. ومرّت سيارة الباص بسرعة. وعند العودة تجددت أحزان طفولتي .هذا الحلم الواقف أمامي، لماذا لا أرتديه مرة لأقول وصلت إلى اللذة القاتلة؟! إن الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون؟

-وهل ناموا .. ودخلت؟

*حدث ذلك في وقت لاحق. لم يعد البكاء لائقاً بمن هم في مثل سني .كنت أختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر. صار الشوك أطول مني ومنه فضعنا معاً. لم نعد نعرف أّنا سيعثر على الآخر. ولكنني لم أر، من قبل، عصافير بمثل هذه الألوان الخضراء والزرقاء. جرحتني شوكة حادة، ففرحت لأنها نقطة الوصول. كنت غارقاً في الإحساس بالحج، ولكن لم أجد الكعبة. من أعطى الأرض هذه الوحشية إلّا الهجر؟ كبرت أشجار الصبّار التي رمى الإنكليز أبي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اختفت في اللحم.
من أكثر حظاً يا أبي؟ ذاك الذي أكل الشوك وواصل تربية الأرض، أم ذاك الذي جاء إلى الأرض فلم يجد إلّا الشوك؟ وهذا الراعي الصغير الذي أدهشته تحيتي: من أين أنت؟ من اليمن؟ أخبرته أنني من هذه القرية، فظنني رومانياً لأنه يعتقد أن هذه الأطلال آثار قرية رومانية.

"وإذا رحلنا إلى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعوّدين عليه، مثل الأفاعي الكبيرة، سأستخدم أهل البلاد - قبل أن أعطيهم أعمالاً في البلدان المجاورة – ليقضوا على الأفاعي وبيضها" هكذا قال هرتسل.. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني أبحث عن أفعى.

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثاً عن الطفل الذي تركته هنا. لم أجد شجرة التوالتي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها. لا شيء.. لا شيء إلّا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس. دخلت الكنيسة، فكانت الأبقار التي تجترني بكسل. ما عاد بوسعي أن أرضى بالأطلال تجسيداً للحلم، لأن انتمائي لم يعد غريزياً.. صار أكثر وعياً، وصار مضمون الحلم – لا انفجاره – هو قضيّتي.

-لم تقل لماذا خرجتم. لماذا لم تصلوا إلى هذه القناعات إلّا بعد هذه الخسارة؟

*أبي يقول إنهم لم يفهموا ماذا يحدث. كانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كما تصوروا. كان الخروج من القرى تخليصا للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الأرض. لم تكن فكرة الوطن تحتاج – على مايبدو – إلى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط. لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين، ولم تكن الدعوة إلى البقاء – على مايبدو – جزءاً من المعركة لأنها لم تكن محدودة القوى والأبعاد، هل يعني ذلك أن الحسّ الوطني كان رديئاً؟ كلّا. بدليل أن الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء أنفسهم وبدوافع وطنية خالصة. ولكن التنظيم كان هو الرديء .وكان الانطباع الشائع – أو الخديعة إذا شئت – يقول أن الخروج مؤقت لأيام معدودة .فلماذا يموت الأطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني إذا كان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معا؟ إن الإسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حسّ الانتماء إلى الوطن والافتقار إلى الجدارة بوطن تخلوا عنه بسهولة. والإسرائيليون لا يخدعون إلّا أنفسهم حين يصدقون إدعاءهم، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التي أضافت سببا قويا لدفع العرب إلى الخروج. ووضعوا أمامهم الاختيار التالي: إما الموت، وإما النزوح لعدة أيام. وإن تفريغ فلسطين من العرب لم يكن إجراء طارئا استدعته ظروف، بل كان خطة ثابتة في استراتيجية العمل الصهيوني قبل إنشاء إسرائيل، وخلال الحرب، وبعدها. وقد نفّذوها بالعنف المسلّح، ووجدوا فتوى دينية في مثال يهوشع بن نون وفي أن "يوم الرب هو يوم إرهاب" ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم. ومناحيم بيغن هو الذي قال: "لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة إسرائيل". ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين، وقتها، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي :إما أن تخرجوا وإما أن يحدث لكم ما حدث في دير ياسين. وفي كل القرى التي احتلوها، فيما بعد، كانوا يجمعون السكان في الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم أما الإختيار ولكي ولكي تصل أنباء المجزرة إلى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا أحقادهم التاريخية المكبوتة. ووجد الإسرائيليون أيضا فتوى قانونية تقول أن العرب باعوا أراضيهم. ومن المؤسف أن تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه الكذبة الإسرائيلية، دون أن يحاول أصحاب هذه القناعات معرفة أن اليهود لم يمكلوا حتى عام 1948 أكثر من 6 بالمائة من مجموع أراضي فلسطين.

-وأنتم .. ماذا فعلتم بأرضكم؟

*اسأل عما فعلت بنا الأرض؟ قتلت جدي من القهر والانتظار. وشيبت أبي من الكدح والبؤس. وأخذتني إلى الوعي المبكر بالظلم. كان جدي ملاكاً موفور الحال. وحين حدث ما حدث، وصار هو" حاضراً غائباً" كان يقضي أيامه أمام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر إلى مدينة عكا لا لشيء إلّا ليرى أرضه من خلال نافذة سيارة الباص. يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات.. وينتظر. هو الذي رباني وكنت أحبه أكثر من أبي الذي كان مشغولاً بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر. علّمني جدي القراءة ومساحة الأرض وأعمار الزيتون. وكان يشتري لي كتباً من عكا ويأخذني إلى أصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم، ولا يخطيء إلّا في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية إلى أن ينام. وفي الصباح أذهب إلى المدرسة التي لا تسجل اسمي لأن أبي غير مسجل في ملفات الحكومة. من ذهب إلى لبنان وعاد بعد عام أو عامين لا يعود مواطناً .ومن جاء من وارسو بعد ألفي سنة يملك الحق والوطن!

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه، ويوقظ الأسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والأبناء الأربعة – وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط إلى الجدّ ليسأله: هل عاد أبناؤك من لبنان؟ يعترف الجد" بالجريمة"، ويسوق الضابط الأب والعم إلى الاعتقال بتهمة التسلل إلى بلادهما!

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الأمل، فانتقل إلى قرية أخرى قريبة من أرضه. وذات صيف احتال على القانون، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه. وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الأرض أن يشتري ما تنتجه أرضه. وكان جدي قليل الدراية بالتجارة، فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم .وشرح لي، تحت الشمس، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقاً بسيطاً بينه وبين جلده .كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه إلى إعادة الصلة المقطوعة، قانونياً، والمتلاحمة، تاريخيا ووجدانياً، أقوى من البؤس المفاجيء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه. فلو كان انتماؤه معيشياً لحل المشكلة بفك هذا الانتماء الذي سيضمن له الرخاء. ولكنه آثر

الحرمان على بيع أرضه، لم تعد الأرض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل أن تتحول إلى شرط الكرامة. صارت تعني له الآن، بعد مصادرتها، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى. وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من ساحة الجريمة والعذاب 'لن أبيعهم أرضي حتى لو مت جوعاً"، وقد أورث هذا المعنى لأبي الذي كان امتحانه أقصى وأعنف. إنه يعيل أسرة من ثمانية أفراد تسكن بيتا من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل.

ولا مصدر رزق للأسرة الكبيرة التي تطالب بالأكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة، يصحو في الخامسة صباحا ويعود في الخامسة مساء إلى النوم ليصحو قادراً على مواصلة العذاب اليومي. كان المقلع بعيدا في منطقة سموها منطقة مناورات عسكرية، وكان الوصول إليها يقتضي التوقيع على وثيقة الموت التي تحمل تنازل حاملها عن حياته وإهدائها إلى دولة إسرائيل في حالة تعرضه للموت.

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله 'لن أبيع ولو مت بين الصخور . "كان يقول دائماً: ليس العمل الأسود عيبا ولكن الضمير الأسود هو العيب. كنت في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية حين ألقيت قصديتي الأولى على جمهور كبير جمعه أعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام اسرائيل. قلت كلاما ضد الحكومة والانتصار وضد الظلم والاستعمار، فجنّ جنون مختار القرية المسؤول عن الاحتفال وقال: هذا الصبي جاء ليخرب بيتنا بعد ما خرب بيته وبيت أهله. لماذا لا يراعون أصول الضيافة..؟ وغيره من الكلام الذي نسمعه الآن. وفي اليوم التاني استدعاني الحاكم العسكري واسمه دوف، فوبّخني وضربني فما بكيت. وحين قال لي: سأمنع أباك من العمل في مقلع الحجارة وأقطع عنه تصريح الموت، بكيت في طريق العودة إلى البيت، لأن هذا معناه أن أزداد جوعا وبردا، وألّا أنتقل إلى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة، فليس التعليم مجاني كما يظن البعض. وفي البيت شجّعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والأمل ولم يزل.

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر. واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم. لا يعطينا أحد ماء بالمجان إلّا السماء أيام الشتاء. فكانت أمي تقضي نصف نهارها انتظار امتلاء الجرة من عيم الماء التي تعطي قطرات بخيلة. كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت. وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين إلى أشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية. لم تذهب يوماً إلى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب إلى جنازة في القرية وفي القرى المجاورة. عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء. وبارعة في السخرية.

وكان عمي ينفّذ وعد هرتسل، فيعمل أجيراً عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الأعمال السوداء "التي لم يتعود عليها اليهود" ولا يحصل على جائزة لأنه لم يحمل لهم جلد الأفعى وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقوداً من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود. وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة.. حبة.

هكذا، آثروا جميعاً، بالفطرة والكرامة، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته، لأنه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد، على أن يستريحوا قليلاً مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم.. وليس لأعدائهم، ولكنه لأبنائهم.

وماذا أخذت عنهم؟

*المعاني ذاتها ولكن في إطار مختلف. كان انتظارهم سلبياً، وكانت الأرض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش. أما بالنسبة لأبناء جيلي فإنها تعني – بالإضافة إلى ذلك – ساحة صراع ومستقبل. فالحنين طاقة إنسانية غير متحركة. إنه سلاح سلبي. وقد أخذ الصراع أشكالا متدرجة أولها الرفض والإيمان بالقدرة على التغيير، ثم الصراع ضد القوى والظروف التي جعلت مواطننا بلا وطن، في إطار عمل جماعي لا يحاصر نفسه بالذكريات، بل يطلقها باستشراف حياة أخرى عن طريق الممارسة اليومية. الانتماء إلى الأرض – والوطن لا يحقق فعالية إلا إذا ارتبط بانتماء إلى قوة من قوى الصراع. هكذا أدركنا في جيل مبكر.

-كان هذا ممكنا؟

*في إطار الاختيارات المحدودة.

-من أين يأتي الأمل؟

*من الخارج.. من الخارج دائما، إن الأسرى يصارعون ضمن إمكاناتهم. ولكن تحطيم السجن كلياً لا يأتي إلّا من النافذة .وكانت النافذة أوسع في البداية، لأن الأخوة كانوا أقرب.

_من أين يأتيك الحزن؟

*من مسام جلدي.

-ومن أين يأتيك الفرح؟

*من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين إلى الجنة.

-تذكر متى افترقنا؟

*حين مات جدنا ولم يدفن في قبر اختاره. ولم تخجل الإذاعة.

-ولماذا تذهب إلى العالم دائماً؟

*أنا لا أذهب إلى العالم. ولكن العالم هو الذي يأتي إليَّ دائماً .ويحاصرني.

-متى نلتقي ثانية؟

*حين تدق جدار صدري وتقفز منه لتجلس في مواجهتي كعادتك. ولكن لا تكترث من زياراتك.. أرجوك. لا ينقصني حزن وبراءة.

-تقتلني؟

*حين يقتل الإنسان طفولته ينتحر. وأنا بحاجة إليك كشهادة على جيل. لا تأتِ كثيراً لأن البشاعة تملأ المدن. وأصدقائي يموتون كثيراً هذه الأيام.

-لا تنسني.

وعاد إلى صدري ليتسلق جذع شجرة التوت في ساحة البيت القديم، ويقطف القمر الذي لم يسقط في البئر.

الوَطن... بين الذاكرة والحقبة

1

_ما هو الوطن؟

*الخريطة ليست إجابة. وشهادة الميلاد صارت تختلف. لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت. منذ الآن وإلى أن تموت, أو تتوب، أو تخون. قناعتك لا تكفي، لأنها لا تغير ولا تفجّر ولأن التيه كبير. ليست الصحراء أكبر من الزنزانة دائما. وما هو الوطن؟ ليس سؤالاً تجيب عنه وتمضي. حياتك وقضيتك معا. وقبل وبعد ذلك – هو هويتك. ومن أبسط الأمور أن تقول: وطني.. حيث ولدت. وقد عدت إلى مكان ولادتك لم تجد شيئا. فماذا يعني ذلك؟ ومن أبسط الأمور أن تقول أيضا :وطني.. حيث أموت. ولكنك قد تموت في أي مكان وقد تموت على حدود مكانين. فماذا يعني ذلك؟ وبعد قليل.. سيصبح السؤال أصعب.
لماذا هاجرت.. لماذا هاجرت؟ منذ عشرين عاما وأنت تسأل: لماذا هاجروا؟ ليست الهجرة إلغاء الوطن. ولكنها تحويل المسألة إلى سؤال. لا تؤرخ الآن. حين تفعل ذلك تخرج من الماضي والمطلوب هو أن تحاسب الماضي. لا تؤرخ إلّا جراحك, لا تؤرخ إلّا غربتك. أنت هنا.. هنا. حيث ولدت وحيث يأخذك الشوق إلى الموت. وما هو الوطن؟ ولكنك جزء من كل، والكل غائب، ومعروض للإبادة. ولهذا صرت تخشى القول: إن الوطن هو المكان الذي عاش فيه أجدادي؟ لأنك ترفض ذريعة أعدائك, هكذا يقولون.

_ماذا تعلمت في المدرسة؟

" *سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس إلى نافذتي في المنفى. أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي."

_والأغنية السابقة؟

*ألغوها.

_ماذا كانت تقول الأغنية التي ألغوها؟

*عليك مني السلام.

يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام

وطاب إنشادي.

لا فارق كبير بين الأغنيتين ,غير الفارق غير الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب. كلتا الأغنيتين تعلن الحب للأرض ذاتها. وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالإنتماء إلى الأجداد. الأولى _ لشاعر يهودي عاش في روسيا. والثانية_ لشاعر عربي عاش في فلسطين وما رأى المنفى وما سمع به. بعد قليل تغلبت الأغنية الأولى على الثانية، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد. وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم. وصار طريقهم إلى المستقبل مرهوناً بإتقان الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا. والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة اسرائيل وبتهمة اللاسامية. ثم كبرنا قليلاً, فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة, ولم نأخذ من المتنبي إلّا "فيك الخصام وأنتَ الخصم والحكم."

هم الخصوم والحكام..

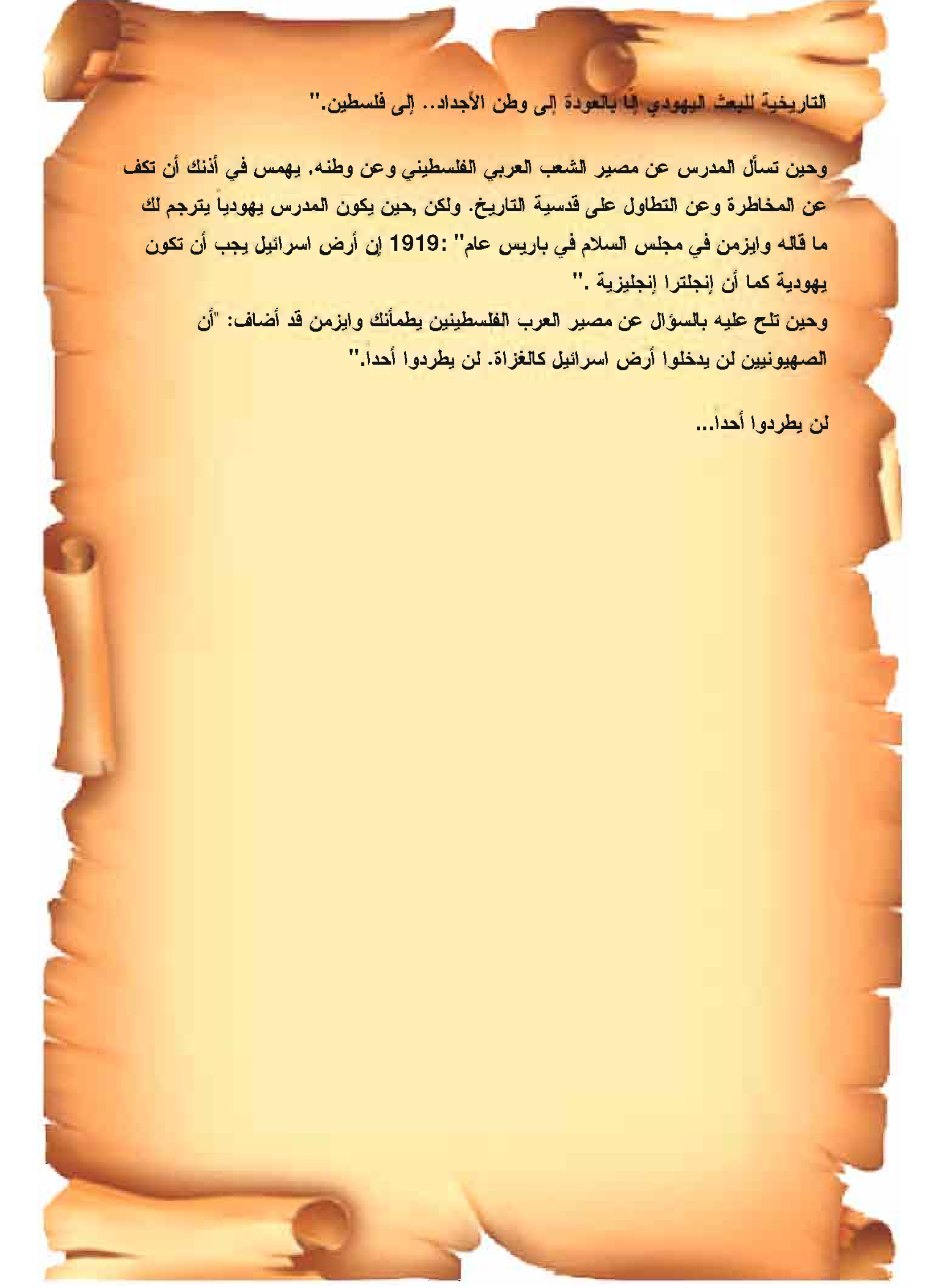
وهم الذين يحددون لنا "ما هو الوطن:"

"تخرج مع موسى من مصر هارباً. تضرب البحر بعصا, ينشقّ البحر. يمر بنو اسرائيل ثم يلتهم البحر أعدائهم. تبقى في صحراء سيناء أربعين عاماً. تتصالح مع الرب. وتعود."..

هم الخصوم والحكام.

وهم الذين يحددون لنا "ما هو الوطن:"

"جلس تيودور هرتسل وفكّر بمصير شعبه المضطهد. ألّف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد الى أرض الخلاص الوحيد.. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا القيام بتنفيذ الرسالة



التاريخية للبعث اليهودي إلا بالعودة إلى وطن الأجداد.. إلى فلسطين."

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه. يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ. ولكن ,حين يكون المدرس يهودياً يترجم لك ما قاله وايزمن في مجلس السلام في باريس عام" :1919 إن أرض اسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية ."
وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينين يطمأنك وايزمن قد أضاف: "أن الصهيونيين لن يدخلوا أرض اسرائيل كالغزاة. لن يطردوا أحدا."

لن يطردوا أحدا...

لا تسأل أستاذ التاريخ. لقمة عيشه يأخذها من الأكاذيب. وكلما ابتعد عن التاريخ، عادة, كلما اقتربت الكذبة من البراءة, وقلّ أذاها. وأستاذ التاريخ هذا يعرفك جيداً. على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا إلى الشرق في اتجاه صفد. وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر. على هذه الرابية, ولدت قبل قليل.
ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء.. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الأسود ومن طلقات الرصاص الأولى. لولا القمر, ليلتها، لفقدوك إلى الأبد, واستبدلوك بشيء آخر, كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر. هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئاً حسبته طفلها وقفزت إلى أقرب زورق.
في البحر الذاهب إلى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة يومها, أصيبت بالجنون. كم طفل تحول إلى وسادة وكم وسادة تحولت إلى طفل. وما هو الوطن؟
وطن الأم طفلها ووطن الطفل أمه" .والفلسطينيون باعوا أراضيهم وهاجروا" _ هكذا يقول الأصدقاء والأعداء على السواء .الموت ليس استشهاداً حين يكون بالمجان. ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن. أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة. والذين يقولون أن الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة. وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة.

وليلتها, لم تفهم شيئاً سألت أباك، نهاك عن السؤال لأنك صغير ,وضعوك في قرية مجاورة. وذهبوا. وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحداً. وفي جنوب لبنان تصبح لاجئاً تأكل من وكالة الغوث, وتنتظر العودة. هو هذا الشيء الضائع .هو هذه العودة المنتظرة, وحين تعود بعد عام أو عامين إلى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعاً.

لا تخبر أحداً أنك في لبنان.

_أين كنت إذن؟

*في مضارب البدو شمال فلسطين.

بعد قليل، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة. اسمها إسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه.

_وماذا لو قلت أني جئت من لبنان؟

*لأنك عدت متسللا والدنيا تغيّرت. لن نحصل على بطاقة هوية. في كل أسبوع جنازة في القرية. الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص. وأستاذ التاريخ يقول لك إن اليهود لن يطردوا أحدا... وحين تسأله: كيف تكون إسرائيل يهودية كما تكون إنكلترا إنكليزية دون أن يطردوا العرب. ينهاك عن الأسئلة ويقول لك: التاريخ تاريخ ,والسياسة سياسة. وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية يخرج شارع من عكا إلى صفد. هذا الشارع بالنسبة إليك ليس طريقا ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك .الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن. في اللحظة التي وصلوا فيها أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك. في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئاً. إذا وطئت قدماك هذه الأرض _ أرضك ساقوك إلى المحكمة. ومن المحكمة إلى المنفى. وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حينا وبالخيال آخر. وهنا تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن؟ هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والأرض. ليس الوطن أرضا. ولكنه الأرض والحق معاً.الحق معك، والأرض معهم. وحين امتلكوا الأرض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق المكتسب. كان "حقهم" تاريخاً وذكريات. وصار أرضا وقوة. وأنت بلا قوة _ فقدت التاريخ والأرض والحق.

"اسمع.. يأتي المهاجرون، ويأخذون هذه الأرض، وتصير جميلة .
"نفتح حانوتاً، ونبني مدرسة، وكنيساً. وستكون هنا أحزاب، وسنتناقش حول عدة أمور.
سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها. وتحيا خزعة العبرية! ومن سيتصور أن خربة خزعة
كانت هنا. طردناهم وورثناهم. جئنا، أطلقنا النار، حرقونا، نسفونا، ونفينا."

ليس هذا كلاماً عربياً. إنها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب إسرائيلي قبل أكثر من عشرين
سنة، تعطي تحديداً دقيقاً لحقيقة مفهوم الوطن. ترد على التاريخ وعلى أستاذ التاريخ. هكذا قام
"الوطن" الإسرائيلي: لا بالحق، ولا بالتاريخ، ولا بالهرب من الاضطهاد. بالعنف وحده: طردناهم
وورثناهم. أحرقنا ونسفنا ونفيناهم. ولكن الصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والأكاذيب.
وحين، تسير معهم، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون, ولكنهم يختتمون التقرير الدائم: لا مفر.
وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء إلى حق يعتاد عليه الناس .

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد. فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو، إن الإسرائيلي
يسكن بيتاً مسكوناً بالأشباح، ولكن انصرافه إلى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صدّ كل ما
يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن فظاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته.
ومع مرور الأيام، تنكمش صورة العربي وتذوب. كانت عبئاً على الضمير، ثم تحولت إلى ديكور
طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من إبادته، ولا حق لها بالوطن.. لا حق على الإطلاق.

خلال حرب حزيران /يونيو، فوجئ كثير من الجنود الإسرائيلين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة.
وبأنهم يتذكرون وطناً ضاع. وأكثر ما فاجأهم هو أن الأطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن
مازالوا متعلقين بهذا الوطن. وروى جندي إسرائيلي أنه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد
أن السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة. إنهم
موزعون وفقاً لما كانزا عليه. القرية ذاتها والشارع ذاته. وقد اهتاج الجندي.
لماذا؟

-كنت عاجزاً عن الفهم. لقد مرّت تسعة عشرة سنة وما زالوا يقولون: نحن من بئر السبع!

وقال لي جندي شاعر إنه لم يشعر بأنه غريب في فلسطيني وما واحداً في حياته إلّا حين دخل

إحدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الأخيرة. كان في الزيّ العسكري. ورأى طفلة في الشارع تنظر إليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال. من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك أنه محتل. لم يخفِ الجندي دهشته من رفض عيون الطفلة. قال: هذه الطفلة.. من أين جاءت بالذاكرة؟ ومن علّمها أن لها وطناً.. من علّمها!

صراع بين ذاكرتين!

الذاكرة اليهودية تشكل إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق في فلسطين. ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الآخرين في التمتع بحاسة الذكريات. والإسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة. على الرغم من أن حد شعاراتهم القومية شعار "لن ننسى". ومن قضايا التعليم الإسرائيلي والأولى في سلّم الأولويات الصهيونية إبقاء الوعي العام في حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية، كانوا يقولون دوما: "لتنسى يميني إذا نسيتك يا أورشليم."

ومن بعد الكارثة التي تعرض لها يهود أوروبا على أيدي النازية أصبح الشعار الأساسي عندهم : "لن ننسى.. ولن نغفر". وفي كل عام، يحيي الإسرائيليون ذكرى ضحاياهم. تتعطل كل مرافق الحياة في إسرائيل. وهناك متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكير الجيل الجديد بالكارثة. وفي كتاب "الإسرائيليون" لعزرايا إيلون فصل خاص عن هذا الموضوع، يقول فيه: "إن إحياء ذكرى الكارثة يُقر، في نظر الجيل الصاعد، إحدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية، وهي أن اليهودي بدون وطن سيبقى حثالة بشرية وفريسة للحيوانات الشريرة ."ويعترف الكتاب بأن السياسة الإسرائيلية تستغل الكارثة لأغراض ابتزازية.

إن الثقافة الإسرائيلية تلحّ على إشباع المواطنين بذكريات كارثة أوروبا لتعميق إحساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم. ويشكل عذا الإحساس عنصراً جوهرياً في بنية النفسية والمزاج الإسرائيليين. ومن هنا، تكون تنمية الذاكرة الإسرائيلية مكرّسة لغرض سياسي محدد: الإلحاح على الإسرائيلي بأنه دائم التعرض للإبادة، وأن العودة إلى "أرض إسرائيل" والصمود فيها هو الأمان التاريخي والسياسي الوحيد، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين.

ليس من واجب اليهودي، وحده، ألّا ينسى مذابح النازية. كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية الذكرى واستخلاص العبرة. وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وحركات عنصرية في عالمنا اليوم. ومهما بلغت درجة العداء الإسرائيلي – العربي، فليس من حق أي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه، لأن النازية عدوة كل الشعوب. هذا شيء.

ولكن تمادي إسرائيل في تفريغ أحقادها بشعب أخر.. هو شيء آخر. فالجريمة لا تعوض بالجريمة .وأن يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن أن يكون تعويضاً عن الكارثة. إن الإسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة في التاريخ، حتى حوّل هذه الصفة إلى ميزة وامتياز. ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزاً كل العجز عن إدراك هذه الحاسة لدى الآخرين. وليس من القسوة أن نقول إن سلوك الإسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة أنها تتاجر بدم الضحايا اليهودية. بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمناً لضحايا النازية تقتل شعبا آخر.

ومن هنا، ليس من القسوة أيضاً القول أن الطريقة التي تحيي بها إسرائيل ذكرى ضحايا النازية تتّسم بالابتزاز، لأن الهدف السياسي من إشباع الإسرائيلي بحسّ الكارثة مكرّس لإشباعه، في الوقت ذاته، بالحاجة إلى الانتقام لا من قاتله.. بل من ضحية أخرى هي الشعب الفلسطيني. إن الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي- إذا صحّ الرقم - قد أعطاه وطناً!

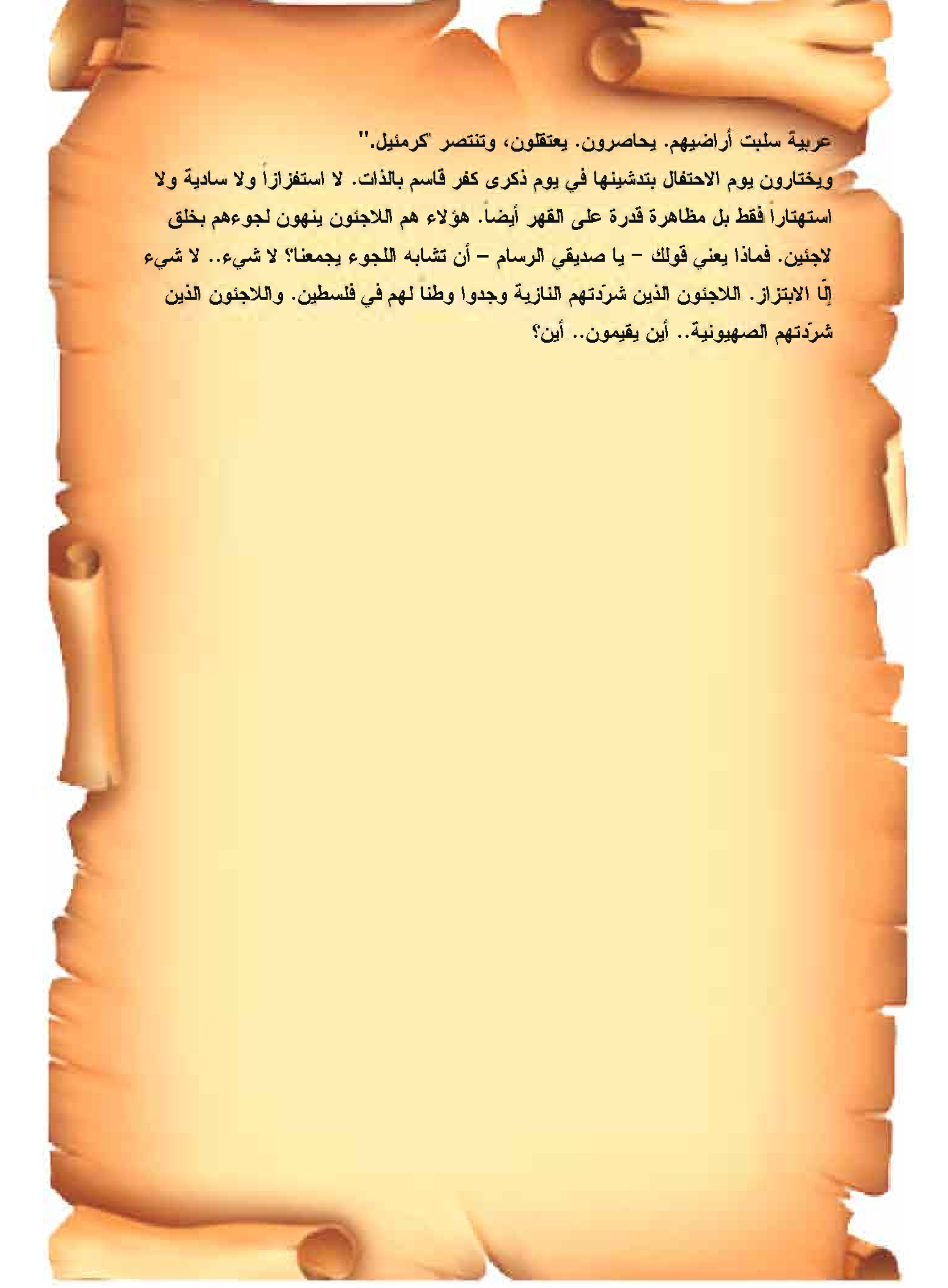
لا يعترف بحقك.. ولا يعترفون بذاكرتك

ذهبت إلى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر. وأعلنت أنك موجود. قال صديقك: تعال إلى مغامرة. إن اقتحام الجمال مغامرة حقا. إلى الجنوب من حيفا- على الشارع المحاذي للبحر الأبيض، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها إلّا في جرحك المفتوح. تنحرف السيارة إلى الشمال قليلاً فتجد نفسك في كنز. على المدخل لافتة بالعبرية تقول "هنا عين هود". اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة. يسقط الوطن، ولا يسقط حرف. وما هي عين حوض؟ بيوت عربية باقية من الخارج كما تركها أصحابها. كل بيت يختبيء في غابة ويستقل عن العالم، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقا صغيرا إلى البحر.
السكان الأصليون نقلوا إلى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي. لماذا هذه السادية؟ يرون إلى بيوتهم وسكانها الجدد وإلى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة. وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم.

لصديقي صديق رسام إسرائيلي يقيم في هذه القرية. أصرّ على الاحتفاظ بالبيت العربي القديم على حاله" .ديكور يذكرني بالشرق" هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية. سألناه عن علاقته بالأرض التي يسكنها الآن. فأجاب بأنه يحبها. ذكرناه بأن مجرد حاجته إلى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الأرض، ويعطيه صفة السائح. قال : ليس لي مفر. ثم دلّنا على التشابه التاريخي بين العرب واليهود. إن صفة اللجوء تجمع بينهما. والآن، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الآخر. قلنا: إن ما يجمعنا هو، في الوقت ذاته، نقطة الصراع بينهما. لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر إلى نقطة الدائرة ذاتها. وهكذا تكون المعادلة متناقضة. حين تجد نفسك تلغيني من وجودي، وحين أتمسك بوجودي تتحول العلاقة ما بيني وبينك إلى صراع. لا لأني أعترض على خلاصك وعلى احتمال المشاركة في الوجود، ولكن لأني أعترض على إلغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك.

لا تنتهي المناقشة في مثل هذه الحالات، لأن الاعتراف بالحق نفي. فعلى بعد خطوات منا يجلس أهل القرية الأصليون وينتظرون ..وليست صهيونية عربية – كما يدّعون – أن يتمسك العربي بذاكرته عقدين من الزمن. إن طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هو ضعف إسرائيلي أكثر من كونه ذريعة .فالاحتكام إلى الذاكرة يبطل الدهشة الإسرائيلية الناتجة من تمسك الفلسطيني بذكريات طازجة. إن الذي أباح لنفسه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع في الوهم. واحتكار البكاء – إذا جاز التعبير – ليس صفة قومية تدعو إلى الاعتزاز. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو – وفي ساعة محددة في الصباح – تنطلق صفارات الإنذار في كل أنحاء إسرائيل لتعلن الوقوف حداداً على الذين سقطوا في "حرب التحرير". السائر يتسمّر أينما كان. والسيارات تقف. والأعمال والماكينات تتوقف إعلاناً عن الحداد الذي يسبق الاحتفالات والفرح. وماذا يفعل العربي؟ يبكي في القلب أو ينفجر من الضغط. إن إعلان ميلاد إسرائيل هو في الوقت ذاته لإعلان وفاة الوطن الفلسطيني. هذه اللحظة، إذن، هي الزمن الفاصل بين حالتين. ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى. تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية، إذن، هدفاً صهيونيا ومطلباً قومياً من الدرجة الأولى. لا. ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك. وفي هذه اللحظة – المفارقة تلتقي دموع الأضداد. أنت تبكي على وطن ضاع. وهم يبكون على من ضاعوا بحثاً عن "وطن" وُلد.

تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر. ما هو الوطن؟ أن تحتفظ بذاكرتك – هذا هو الوطن. إن أحزانهم كثيرة. كل أعيادهم حزينة. ولكن حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون. في الليل يرقصون بجنون، يقبلون على الحياة بجنون. لماذا تطالبهم بأن يفهموك. كنت تقول دائماً: ليتني أكتب مقالاً واحداً دفاعاً عنهم.. وأموت. لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الأمنية الخبيثة. إن أحزان المنتصرين نفاق وخداع، وليست دليل رقيّ بقدر ما هي دليل نقص. لقد حملوا أحزان التاريخ وأفرغوها بك أنت. وأنت مطالب بألّا تحزن. ممنوع من الحزن يا عربي!.. هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية، وأنت ممنوع من إحياء ذكرى أحد أو شيء. أكثر من ذلك: يدعونك إلى الاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك. وإذا رفضت عوقبت. لم يسمحوا لك بإحياء ذكرى ضحايا كفر ضحايا كفر قاسم. إن ضحاياهم – كل ضحاياهم سقطوا بأيدي سواك.
وضحاياك – كل ضحاياك سقطوا بأيديهم. حين تأتي ذكرى كفر قاسم يحاصرون القرية والمقبرة، ويمنعون الناس من الدخول، لأن الحزن ممنوع. وأكثر من ذلك: يصادرون مزيداً من الأراضي في الجليل.. يترجمون من جديد بمدينة يهودية "كرمئيل". يتظاهرون سكان ثلاث قرى



عربية سلبت أراضيهم. يحاصرون. يعتقلون، وتنتصر "كرمئيل."

ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفر قاسم بالذات. لا استفزازاً ولا سادية ولا استهتاراً فقط بل مظاهرة قدرة على القهر أيضاً. هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين. فماذا يعني قولك – يا صديقي الرسام – أن تشابه اللجوء يجمعنا؟ لا شيء.. لا شيء إلّا الابتزاز. اللاجئون الذين شرّدتهم النازية وجدوا وطناً لهم في فلسطين. واللاجئون الذين شرّدتهم الصهيونية.. أين يقيمون.. أين؟

ذلك الطفل الذي أسلمته رحم أمه إلى الأرض، وأسلمته الشرطة إلى المنفى، وأعاده الحنين إلى أرض مفترسة، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الأشياء، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية مغاير لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة. لماذا تكون قدرتك على تحديد "ما هو وطنك؟" برهاناً على شرعية انتمائك إلى هذا الوطن. الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن. أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطناً. إن إحساسك بالحاجة إلى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة .فتلك الصخرة بالنسبة إليك، لا تكون صخرة إذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات. الصخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية. وماذا تقول لي أيضاً؟ كانت صحراء هذه البلاد! لا تذهب بعيداً في الأكذوبة. فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الأيام. لا يحق لك أن تحاسبني على الجدارة. فلست محامياً للرمل أو الحدائق. ما جئت لتدافع عن حق الرمل في الماء ولا عن حق الشجر في الخضرة، لو كانت بلادي كذلك لما أغرتك باحتلالي.. وحرقي.. وطردي .ولم تبلغ، حتى الآن، مرحلة الوقوف أمام دائرة الطباشير لأننا لم نحتكم. ومن هو القاضي؟ أنت! كيف تكون الخصم والحكم في آن معاً إلّا إذا كنت حبيبي. وعلاقتي بك ليس علاقة حب. كنت تدّعي علاقة القربى والدم والآن تدّعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائرة تعترف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن، وتقول إنها علاقة طارئة قابلة للزوال .وبأية وسائل برهنت؟ بالعنف وحده، بالقوة وحدها. هكذا الدنيا.. ذريعة القوي، دائماً، أقوى. بالقوة ووحدها حددت شكل علاقتك بوطني، وشكل علاقتي بهذه العلاقة.

"العرب موجودون في فلسطين في علاقة "أنا وهو."

"أما اليهود ، فموجودون في فلسطين في علاقة " أنا وأنت. "

هذا صوت الفيلسوف الوجودي مارتين بوبر.

يقول: إن الإنسان يرتبط بما حوله عن طريقين: طريق "أنا وهو" وطريق "أنا وأنت". علاقة " أنا وهو" توجد في المكان والزمان وتخضع لقانون السببية. وفي هذه العلاقة لا تظهر الحرية، بل الضرورة. أما علاقة "أنا وأنت" فتوجد خارج الزمان والمكان وهي مستقلة عن قانون السببية،

وتظهر هنا الحرية لا الضرورة .على هذا الأساس، يكون الوجود غير الحقيقي للإنسان عندما يوجد في علاقة "أنا وهو ."والدين اليهودي هو الدين الحقيقي الوحيد القائم على أساس علاقة "أنا وأنت". ولأن اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي، فإن الشعب اليهودي هو الشعب المختار. وبناء على ذلك، فإن دولة إسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين. فإن علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها، لأن العرب موجودون في فلسطين بعلاقة "أنا وهو" ولذا من السهل قطع هذه العلاقة ومن الممكن نقلهم إلى أمكنة أخرى..

ولكن أديبا إسرائيليا آخر أكثر اقترابا من الحياة والواقع يخرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة إلى مستوى التطبيق العملي، وتخلق حالة نادرة من حالات الإحساس بالإثم. فالإديولوجية غالبا ما تبدو نظيفة لأصحابها وهي مجردة، وحين تترجم إلى ممارسة تأخذ شكل الجريمة. في قصته التي أثارت جدلا يصور أبراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام "براءة" الإيديولوجية الصهيونية مع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر. لقد ألصق النقاد الصهيوينون مع الواقع تهمة التخريب والدعوة إلى الانتحار، والتماثل المازوكي مع العدو. القصة تدور في حرش من أحراش "الكيرن كايميت" موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل، وأقيم على أنقاض قرية عربية. بطل القصة طالب إسرائيلي لا اسم له، يبحث عن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية. وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الأحراش أن يعمل حارسا للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف إلى الحرش المعزول، لا يربطه بالعالم الخارجي إلّا منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز إطفاء. ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحا لقصته حرشا أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز إلى تحقيق الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز إلى مأساة الشعب العربي الفلسطيني الناتج من تحقيق الحلم الصهيوني. وليس صدفة أيضاً أن يكون موضوع أطروحة الطالب "الحروب الصليبية" التي تحمل شيئاً من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر.

لم يكن الطالب الإسرائيلي وحيداً في الغابة أو الحرش. هناك فلاح عربي سابق قطعوا له لسانه في الحرب "نحن أم هم، هذا لا يغير شيئا" وقد بقي العربي مع أنقاض قريته يعمل عاملاً في الغابة ومعه طفلة صغيرة .الثلاثة يقيمون في مكان واحد، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد – على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين "لويس شفارتس من شيكاغو"، "ملك بوروندي"، وفود رسمية، سيّاح، وزوار، يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين.

تقول إحدى الزائرات: نريد أن نسأل سؤالاً بسيطاً. نريد أن يبتّ الأمر. أين تقع بالضبط القرية العربية المشار إليها على الخارطة؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة. ينظر إليهم الطالب – الحارس بدهشة. قرية؟ كلا. لا توجد هنا قرية. الخارطة على خطأ.

كان الطالب، في البداية، يقضي الليل والنهار بحثاً عن علامات حريق في الغابة. يجرب صفارة الإنذار. يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام .ثم يتضح تدريجياً ان الطالب – الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة. لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض. ولكن المحاولة تفشل. ومنذ ذلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة. الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية. والعربي الأبكم يصدر أصواتاً وحشية ويجيب بحركات يديه. "يريد القول أن بيته هنا وقريته هنا .وقد أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة."

عندما يشعل العربي النار في الغابة، يشتعل الطالب حماسةً وسعادة. ويشاركه العملية. إنه لا يطلب النجدة. سواه استصرخ رجال المطافئ، ولكن بعد فوات الأوان. ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق. ورويداً رويداً تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة، "تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماضٍ زال".. يقول عزريا ألون صاحب "الإسرائيليون": من الواضح أن الغابة ترمز إلى المجتمع الإسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر. ويقول المؤلف في حديث صحفي إن قصته ليست إيديولوجية ولكنها صف وضع قائم في البلاد، حيث أقام شيء على أنقاض شيء آخر. ثمة إحساس بالألم.

تجد بعض النماذج من تجلي الإحساس بالإثم في الأدب العبري الجديد لدى تناول موضوع بناء المجتمع الإسرائيلي والصراع على "وطن" واحد بين الإسرائيلين والعرب. ولكنه إحساس بالإثم صادر عن الثقة بالنفس. إنه نوع من أنواع إعتراف القوي في حالة صفاء إنساني .يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والإنسانية بعد فوات الأوان وانتهاء المذبحة. ولكنه ليس شديد الشبه بحاورات القاتل الداخلية بعد إتمام العملية. فالأديب الأمريكي مثلاً يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم.

يستغرب كاتب إسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والإحساس بالإثم لدى الطرف العربي. وهذا الاستغراب، بحد ذاته، دليل على الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية. يطالبهما

بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة: تعاسة المنتصر الذي كسب وطناً ولم يسلم من ارتكاب الظلم، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطناً وكيف يشعر بالإثم؟ إذا شعر بالإثم، فإنه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجاه الذي هزمه واحتل وطنه ونفسيته.

لن نسأل بعد الآن عن معنى الوطن..

الخارطة ليست إجابة، لأنها شديدة الشبه بالرسم التجريدي. وقبر جدك ليس إجابة لأن غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه. وأن تبقى بجوار الصخرة – ليس أيضا إجابة كافية لأن اغترابك ليس شيئاً مادياً فقط. لم يحتلوا الأرض والعمل فحسب لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتساءل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الإحساس بحقيقة أنك محتل أحيانا. مواطن من الدرجة الثانية؟ ليس هذا السؤال. لن تكون قضيتك ديموقراطية ولا إنسانية فحسب. وليس عذابك الشخصي ناجماً عن سلوك شخصي.

"اهدأ – تسلم" ليست نصيحة بريئة. هي دعوة إلى نفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسماً. سحبوا الأرض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك. عذبوك، فلم تعترف إلّا بمزيد من الحب المجنون لأسباب عذابك. لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الأمان. تحمل صليبك وتمضي إلى ميعاد انتحارك. ولا تقول "نعم ."والاغتراب الذي يأتيك من كل الأيام يتحول إلى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية. وفي السجن تمتليء بالوطن أيضا. الصراع هو الإجابة، إذا صارعت انتميت. والوطن هو الصراع. بين الذاكرة والحقيبة لا حلّ سوى الصراع. الحق – والحرية – والانتماء– والجدارة لا تعلن إلّا بالصراع. لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء .يريدون أن يستولوا أيضا على انتمائك لتكون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والألم. ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد، ولن تجد الراحة بعيدا عن هذا العبء، ولن يجد الفرح خارج هذا الألم. الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم "العائدة ."

يوميات الحزن العادي

1

- انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

-من شدّة الانحناء صار ظهري قوساً، فمتى تطلق سهمك؟

]تمد يدك إلى يدك، فتجد حفنة طين[

***

*انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

-من شدّة الانحناء صار ظهري قنطرة، فمتى تعبر؟

]تحاول أن تحرك رجلك، فلا يتحرك الحديد[

***

*انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

-من شدّة الانحناء صار ظهري علامة استفهام، فمتى تجيب؟

]المحقق يدير أسطوانة عليها تصفيق كثير.[

***

حين شتّتتهما العاصفة، كان الحاضر يصرخ بالماضي: أنت السبب. وكان الماضي يحول جريمته إلى قانون. أما المستقبل فقد كان شاهداً محايداً.

وحين هدأت العاصفة، كانت الانحناءة قد اكتملت، وتحولت إلى دائرة لا تعرف بدايتها من نهايته

_ضع فاصله وراء كل تنهيدة، وقل لنا: من أنت؟

وحين أفاق من الغيبوبة كان دمه قد جفّ.

*أنا من الضفة الغربية.

_ولماذا عذبوك؟

*وقع انفجار في تل أبيب، فاعتقلوني.

_وماذا تفعل في تل أبيب؟

*أعمل في البناء.

لم تكن حالة عمل العمال العرب من الضفة الغربية أو قطاع غزة في المدن الإسرائيلية قد تحولت إلى ظاهرة عامة. ولعل الرأي العام العربي، بعد الهزيمة الأخيرة مباشرة. كان يطالب العمال العرب بالمجاعة تعبيرا عن الصمود ورفض الاحتلال. دون أن يفكر أحد من المسؤولين بالاهتمام بمسألة تأمين سبل المعيشة للسكان الواقعين تحت الاحتلال من أجل ضمان استمرارهم في الصمود وعدم التعاون مع الغزاة.

*عندما تسكت المدافع، من حقي أن أشعر بالجوع.

ماذا تقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل؟ ليس بوسعنا أن نطحن الأناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها إلى خبز.

إن أخطر شيء هو أن يتحول الوطن. تحت الاحتلال الأجنبي. إلى رغيف خبز. ولكن السيئ أيضاً هو أن يدفع المواطنون الواقعون تحت الاحتلال إلى المجاعة في حالة الصمت العسكري والسياسي السائدة.

***في حالة الحرب والمعارك لا نفكر كثيراً بمستوى المعيشة .أعلنوها معركة أو حرباً وخذوا منا كل التضحيات. ولكن حين تسكت المدافع, فمن حقنا أن نشعر بالجوع.**

ولماذا تنسى أو تتناسى أن إسرائيل بنيت بسواعد عربية.

يا للمفارقة.. ويا للعار!

يقدمون لك تفاحة حمراء, ويسألون: هل ذقت التفاح السوري؟

ما أجمل التفاح في السجون. هو الشيء الوحيد الذي يحول لون الرماد إلى لون النار.

تقول لهم: إن التفاح السوري يملأ الأسواق الإسرائيلية. وأن التفاح السوري يهزم التفاح الإسرائلي.. أكبر، وأجمل، وأرخص. يشتريه اليهود بلا حرج, على الرغم من احتجاج الكيبوتسات التي هبط قيمة تفاحها, لأنه أكبر.. وأجمل ..وأرخص!

_وماذا جاء بكم إلى هنا أيها الأشقاء السوريون؟ كنا نعد العدة للقائكم في بيوتكم لا في السجون.

*لقد ألقوا علينا القبض بتهمة التسلل من دمشق إلى القنيطرة.

_كل عودة تسلل. هذا هو حظ العرب.

.. *وقالوا إننا جئنا للتجسس!

_تجسس على المنازل والكروم؟!

*شيء كهذا!

_وهل اتهموكم بأنكم تسرقون تفاحكم؟

*لم يقدموا لائحة الاتهام بعد.

_كم قضيتم في الاعتقال؟

*أحد عشر شهراً وأسبوعاً وثلاثة أيام.



ويسألونك فجأة:

أنت تعرفهم ، فهل تظن أنهم سيتهموننا بأننا سوريون؟

***ألستم كذلك؟**

_نعم. نحن سوريون.

***وهل هي تهمة؟**

_لا نعرف...

_من أين أخي؟

*من غزة.

_ماذا فعلت؟

*ألقيت قنبلة على سيارة الغزاة. فانفجرت بي.

_و

*ألقوا عليَّ القبض ,واتهموني بالإنتحار.

_اعترفت طبعا؟

*ليس تماماً. قلت لهم إن محاولة الانتحار لم تنجح. ولذلك حرّروني من الرحمة وحكموا عليَّ بالسجن المؤبد.

_ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار؟

*يبدوا أنك لا تعرف غزة. فالمسافة هناك شيء وهمي.

_لا أفهمك جيداً.

_يبدوا أنك لا تعرف غزة. فمن أين أخي؟

*من حيفا.

_ماذا فعلت؟

*ألقيت قصيدة على سيارة الغزاة. فانفجرت بهم.

_

و ألقوا عليَّ القبض واتهموني بالقتل الجماعي.

_اعترفت طبعاً؟

*ليس تماماً. قلت لهم بأن محاولة القتل نجحت. ولذلك أعطوني الرحمة، فاستجابوا إلى طلبي, وحكموا عليَّ بالسجن لمدة شهرين.

_لا أفهمك جيداً.

*يبدوا أنك لا تعرف حيفا. فالمسافة هناك شيء وهمي.

جاء الحارس. وضعه في زنزانة. وأطلق سراحي!

-اذهبي.. وتعالي، ريثما أصحو من اللذة.

وابتعدي عني قليلاً، لكي ينفصل الحلم عن عظامي.

أنا علّمتك التدخين، وأنت علّمتني مرافقة الدخان.

اذهبي.. وتعالي!

-وماذا قلت لها أيضاً؟

لم أحدثها عن الحب. كان كلامي غامضاً ولا أفهمه إلّا حين تنام. وكانت تغني كثيراً، ولا أفهم غناءها إلّا في الحلم. وهي جميلة.. جميلة. يوم رأيتها سقط الغيم على دماغي، فخطفتها إلى البيت، وقلت لها اعتبري ذلك حبا.

تضحك.. تضحك في أحلك الساعات.

وكنت أناديها باسم مستعار لأن ذلك أجمل. أقتلها، وبين القبلة والقبلة أشتهيها وأشعر أنها ستضيع مني لو توقفت عن القبل.

بين الرمل والماء، قالت: أحبك.

وبين الشهوة والعذاب، قلت: أحبك.

وحين سألها الضابط عما تفعله هنا!؟ أجابت: من أنت؟ فأجابها: ومن أنت؟

قالت: أنا حبيبته، وجئت أودعه حتى باب السجن أيها المجرم. ماذا تريدون منه؟

قال: اعلمي أنني ضابط

قالت: وأنا سأصبح ضابطة في العام القادم أيها المجرم!

.

.وأبرزت شهادة الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية. فحيّاها الضابط بابتسامة وسحبني من ذراعي إلى زنزانتي.

وفي العام القادم كانت الحرب. وعدت إلى الزنزانة من جديد. وفكّرت بها: ماذا تفعل الآن؟ كانت في مدينة نابلس أو في مدينة أخرى واحدة من الفاتحين ..تحمل بندقية خفيفة. ولعلها تلك اللحظة كانت تأمر الرجال برفع أيديهم أو بالركوع على الأرض. أو لعلها كانت تشرف على استجواب أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنها.. وفي مثل جمالها السابق.

لم تقل وداعاً

ولم تقل لها: اذهبي وتعالي.

لقد علمتها التدخين، وعلمتك مرافقة الدخان.

_نكتب مسرحية مشتركة؟

*نكتب.

_نبحث عن نقطة التقاء؟

*نبحث

_نطرح القضية بكل حدّتها؟

*نطرح.

_ليكن بيت متنازع عليه هو عقدة المسرحية.

*ليكن.

_نلتقي بعد شهر؟

*نلتقي.

في تلك اللحظة، كانت خديجة تودع ابنها في المخيم، وتسلمه مفتاح البيت الذي اشتهر في حيفا باسم "البيت الأحمر."

وفي تلك اللحظة، كانت ساره، المقيمة في "البيت الأحمر"، تودع ابنها الذي لبّى إشارة في الراديو تأمره بالالتحاق بوحدته العسكرية.

التقى الشابان القادمان من اتجاهين متعاكسين في نقطة ما من الغابة، واشتبكا وليس مهمّاً أن نعرف أيهما قتل الآخر.

_هل أكملت الفصل؟

*أكملت

"في المهجر، لم يعلّمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن يهوديتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك فقد علمني الحياة."

_وأنت ماذا كتبت؟

" *في المهجر، لم يعلّمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن فلسطينيتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك فقد علمني الحياة."

_هذه نقطة التقاء هامة.

_والبيت الذي يستقطب مصيرينا، هل هو نقطة لقاء أم نقطة وداع؟

*إنه نقطة صراع.

_كيف تحله المسرحية؟

*لنقل: إن الحق لا ينبع من الإرث، بل من الحاجة والجدارة. وعلى أساس ذلك، لا يكون الرجل الذي بنى هذا البيت منذ خمسين سنة صاحب الحق فيه الآن، لأن رحيله عنه – تحت أي ظرف من الظروف – هو بمثابة تخل عن حق لا يحتاجه. أما المالك الحالي، فقد بذل جهداً في السيطرة على هذا البيت الذي لا يملك سواه.

-وأين العدل في المسرحية؟

*العدل ..العدل. لنبحث عن العدل معاً في اللحظة الراهنة. لنجعل حالة تأنيب الضمير مناخاً سائداً في البيت ريثما يفعل الزمن مفعوله. ليكن التعبير عن الشعور بالإثم لدى اليهودي تعويضاً عن ضياع البيت بالنسبة للعربي.

_نلتقي.

وفي تلك اللحظة، كانت بيوت أخرى في مدن أخرى، تستبدل سكانها .وكانت مفاتيح جديدة تتكدس فوق المفاتيح القديمة في الهاجر العربية التي تضيق مساحتها حرباً بعد حرب. وفي الليل، يحمل شبان مفاتيحهم ولا يعودون!

_لماذا هذه الغطرسة؟ لقد ورثت ديني وقوميتي، ولم أواجه لحظة اختيار واحدة. والآن أسالكم:
من اختار منكم أن يكون يهوديا.. من؟

*هذا هو الفرق بيني وبينك: أنا لست يهوديا فحسب، ولكنني اخترت أن أكون يهودياً.

_كيف؟

*تلك مسألة غير قابلة للشرح. اليهودية لا يفهمها إلّا اليهودي. وهذا هو مصدر اعتزازي الذي تسميه غطرسة.

_إنني أفهم أن تكون أنك اخترت أن تكون صهيونيا.. أن تكون إسرائيليا. فهل تعني ذلك؟

*لا أعني ذلك تماما. أعني اخترت يهوديتي والتزمتها.

_وكيف يتجلى هذا الإلتزام؟

*بالوطن التاريخي.

_وماهو هذا الوطن التاريخي، هل هو غامض كانتمائك. هل اخترته أم ورثته؟

*غامض وواضح معا. اخترته وورثته معاً.

كان المتحدث كاتبا .وكان يتمرد على الفواصل التي يضعها البعض بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية .ويعتقد أن اليهودية لا تتجلى إلّا بالصهيونية. والصهيونية لا تكرس إلّا بالإسرائيلية. ومن هنا، يكون التخلي عن الصهيونية تخلياً عن اليهودية.
وحين تسأله عن التحديد العملي لمصطلح الوطن التاريخي، يذكرك بالحوار الشهير الذي دار بين بن غوريون ومفكر عربي سنة 1936، أيام كانت فلسطين حلما صهيونيا. سئل بن غوريون عن ذلك الوطن التاريخي، فأجاب أنه المنطقة المفتوحة للاستيطان اليهودي.

_وما هي تلك المنطقة؟

*أرض إسرائيل.

_وماهي حدودها؟

*حدود أرض إسرائيل معروفة في التاريخ.

_ولكن الحدود أمر مصطنع. تكون اليوم هنا، وتكون غداً هناك.

*أرض إسرائيل هي تلك الأرض الواقعة بين البحر المتوسط غرباً، والصحراء شرقاً، بين سيناء جنوباً، ومنابع الأردن شمالاً.

_إنك تضم عبر الأردن أيضاً؟!

*بالطبع، فالأردن ليس حداً لأرض إسرائيل. إنه نهر في أرض إسرائيل.

وكان حاييم وايزمن يقول: " إنني أعرف أن الله وعد بني إسرائيل بأرض إسرائيل، ولكنني لا أعرف الحدود التي عيّنها الرب."

في ذلك الوقت، كانت ملايين العرب تضحك ساخرة من أحلام وايزمن، وبن غوريون. وحين تنظر اليوم إلى الحدود السرية "التي عيّنها الرب" والتي تجاوزت فلسطين إلى ما هو أبعد ترى أن "الواقع الإسرائيلي" أوسع من "الحلم الصهيوني" ومن التاريخ اليهودي، وتذكر ذلك الكاتب الذي قال لك: "هذل هو الفرق بيننا وبينكم. أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني أخترت يهوديتي."

فهل تضحك مرة أخرى، كما ضحك العرب قبل خمسين سنة، أم تورث أحلامك إلى الأطفال الذي يولدون على حراب الاحتلال!

تريد أن تستمتع بالشارع؟

*ياحبيبي، في عيد ميلادي، أرجو أن تكون هديتك لي دبابة، أو مدفعا، أو سلاح من صنع روسي.

_سأهديك دبابة ننام فيها معاً يا عزيزي. لنجرب وضعاً آخر.

*لا، سأنام معك في الهواء الطلق، على ضفة قناة السويس.

_ها .. ها .. ها.

*ها .. ها .. ها.

تمشي في الشارع. تجلس في مقهى. تسافر في أوتوبيس، وتسكت.
لست مدعواً للإعلان عن هويتك. إن صمتك يقول كل شيء. هو الموقف الوحيد الذي يتاح لك أن تتخذه حين تستمع إلى هذا الغزل الإسرائيلي. انتهى عصر الكلمات العذبة. سأهديك غزلاً وقمراً. لا. ما أبعد الفارق بين الخيال السابح في الصحراء والخيال المصنوع من التكنولوجيا والنصر. كلمات الحب الآن منسجمة مع آخر أحداث الساعة وأحدث مبتكرات السلاح. واللذة لا تتناغم مع أشياء الطبيعة.

هكذا أصبح العربي في إسرائيل متخلفا حتى في ممارسة الحب. لقد احتاج إلى وقت طويل لكي يعرف كيف يخاطب صديقته بالورد. فكم من العصور يحتاجها هذا المخلوق لكي يتدرب على هذا الغزل: يا عزيزتي.. سأهديك دبابة.

وبماذا تفكر؟ كيف ينامون في الدبابات! وكيف ينجبون أطفالا في الدبابات! وكيف يتنزهون في الدبابات! على رسلك.. هذا هو البيت الإسرائيلي المأمون. هذا هو عش الحب. وهذا هو المستقبل!

9

_وفي عيد رأس السنة، ماذا تفعل؟

تنزل إلى الشارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلها إلى صديق. فماذا تجد؟ لا صورة لوردة واحدة، ولا رسماً لشاطيء أو عصفور أو امرأة. لقد اختفطت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة إلى هذه البطاقات. وحين تلمح غصن الزيتون تجده مرسوماً على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي.

وحين ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح. وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي. فيقع قلبك على الأرض. ولا يبقى لك إلّا أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم، لتفسح المجال أمام آلاف الأيادي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة.. ترسلها إلى يهود العالم تعبيراً عن فرحة البعث التاريخي، وعودة الأسطورة. وأنتَ لا تبعث إلى أصدقائك إلّا صمت القلب الذي لا يصل.

ويفاجئك الكرنفال في الشارع. ينقض عليك الضوء كما كان ينقض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة. وأسراب من الأطفال – الحمائم مدججة بالسلاح. اللعبة سلاح. والمتعة سلاح.

وأنت؟ ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي..

تريد أن تنام؟

في الساعة الرابعة صباحا. يوقظك جرس الباب. تعرف الزائر لكن النعاس أقوى من الشرطة. في التاسعة صباحا تذهب إلى مكتبك لتعمل. تستمتع بنصف فنجان القهوه قبل قراءة الأخبار. يأتيك الزائر المعتاد ويقول :تعال معي! تسأله: اعتقال.. أم تحقيق؟ يقول: لا أعرف. تسأله أن تأخذ فرشاة أسنانك وأدوات الحلاقة وملابس داخلية، فيرد عليك: لا وقت!

تجلس أمام الضابط.

يقول لك بأدب, من تحت صورة هرتسل: يشرفني أن أعتقلك.

تجامله :ويشرفني أن أمنحك هذا الشر. ولكن, هل تتفضل وتقول لي ما هي تهمتي؟

يقول لك :أنت متهم بتفجير بطيخة عند مدخل السيرك, وبالمس بأمن الدولة.

البطيخه والدولة والسيرك___ انسجام نادر.

تنتهي مدة التوقيف القانونية. كل شيء هناك قانوني. تتوقع أن يأخذوك إلى المحكمة, فتستمتع برؤية مدينتك المفتونة بنفسها, من خلال قضبان سيارة البوليس. أو تتطرف بالأمل, كعادتك, وتتوقع أن يطلقوا سراحك.

_انتظر قليلاً.

تحتج على حافة القانون فيقولون لك: لن نحتفظ بك ساعة واحدة بعد انتهاء مدة التوقيف.. ماذا تظن؟ هنا قانون. هنا اسرائيل, وليس العالم العربي.

تفكر بالعالم العربي، فتختلط الغصة بالحلم.. وتنتظر. وماذا تنتظر..
ضابط التحقيق أم العالم العربي؟!

ثم يدخلونك إلى غرفة أخرى .تجد ضباطاً وامرأة عجوزاً. يسألك أحد الضباط إن كنت تتقن اللغة العبرية، ثم يتلو لائحة الاتهام: أنت متهم بالعمل على تدمير دولة إسرائيل. تسأل: تقصد الدولة أم البطيخة؟ تقول تلك المرأة القبيحة: احترم المحكمة. تعلن دهشتك: أية محكمة؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع: هذه محكمة، وأنا قاضية. عندها تفهم أنهم احترموك ونقلوا المحكمة إلى السجن من أجلك. ولكنك ترفض تكريمهم: كلّا سيدتي. لا هذا المكان محكمة ولا أنت قاضية، هذا سجن وأنت سجّانة.

تنتهي الجلسة بتجديد مدة التوقيف.

تعود إلى البيت بسيارة أجرة؟

تتكلم مع السائق بلغة عبرية سليمة. وشكلك لا يعلن هويتك. يسألك السائق: إلى أين يا سيدي؟
تقول: إلى شارع المتنبّي.

تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لأنه مهذب. يقول فجأة: قل لي إلى متى هذا القرف... لقد سئمنا.

تظن أنه سئم حالة الحرب وارتفاع الضرائب وسعر الحليب. فتقول: الحق معك.. لقد سئمنا.
يتابع: إلى متى تحافظ دولتنا على هذه الأسماء العربية القذرة! يجب أن نمحوهم ونمحو أسماءهم من الوجود. تسأله: من هم؟ يقول باستنكار: العرب طبعا. تسأله عن السبب، فيقول: لأنهم قذرون.

تعرف من لهجته أنه مهاجر من مراكش. تسأله: هل أنا قذر إلى هذا الحد؟ وهل أنت أكثر نظافة مني مثلاً؟

يندهش لسؤالك : ماذا تقصد؟

تسأله أن يكون ذكيا. فيدرك ولكنه لا يصدق: أرجوك.. كف عن المزاح!

عندما يرى بطاقتك يصدق أنك عربي. يقول: لا أقصد المسيحيين _ أقصد المسلمين. تقول له أنك مسلم. فيقول لا أقصد المسلمين.. أقصد القرويين. تقول له إنك من قرية متخلفة هدمتها دولته كما يشاء ومحتها من الوجود كما يشاء. يقول: كل الاحترام للدولة!

تنزل من السيارة. وتقرر العودة إلى البيت مشيا. تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع. فعلاً. محوا أسماءها صار صلاح الدين شلومو.
وتتساءل: لماذا حافظوا على اسم المتنبي!

وعندما تصل إلى شارع المتنبي تقرأ الاسم. لأول مرة. باللغة العبرية فيخيل لك أنه "المونت نفي" وليس المتنبي كما كنت تتصور!

تريد أن تسافر إلى القدس؟

ترفع سماعة التليفون، وتطلب ضابط المهمات الخاصة في دائرة الشرطة. تعرفه جيداً، فتسأله عن أحواله وتمازحه. ثم ترجوه أن يعطيك تصريحاً للسفر ليوم واحد بدون نوم. يقول لك: قدم طلباً خطياً. تترك عملك وتقدم الطلب الخطي على ورق صقيل.. وتنتظر الجواب، يوماً.. يومين.. ثلاثة أيام .ثمة أمل لأنهم لم يقولوا "لا" كالعادة. ولكنك تنتظر، وميعادك في القدس يقترب .تسألهم.. ترجوهم.. تتوسل إليهم أن يقولوا أي شي. أن يقولوا "لا" لتصبح في حل من الميعاد. لا يقولون. تخبرهم أن أمامك ساعات معدودة، يقولون: تعال إلينا بعد ساعة لتتسلم الجواب.

تذهب، فتجد المكتب مغلقاً. تتساءل ببراءة: لماذا يخجلون مني؟ لماذا لم يقولوا "لا" كعادتهم دائماً. تغضب وتقرر – بغباء – أن تنتقم من "أمن الدولة".. وتسافر.

في اليوم التالي يستدعونك للمثول أمام محكة عسكرية عاجلة .تنتظر دورك وتسمع حكايات: امرأة عربية تعمل في كيبوتس. ينص التصريح على منعها من النزول في أية محطة على الطريق. لسبب ما اضطرت للنزول، فاعتقلوها. شباب انحرف عن الشارع الرئيسي فاعتقلوهم. والمحكمة لا تبريء أحداً. سجن وغرامات. وتذكر حكاية الشيخ والحمار والتصريح: كان الشيخ يحرث الحقل. علق عباءته على شجرة. والتصريح في جيب العباءة المعلقة على الشجرة هناك. اعتقلوه وحاكموه.

وتذكر تصاريح الموت، حيث كان الفلاحون يوقّعون على نص يحملهم المسؤولية عن موتهم لو انفجرت ألغام في منطقة كان الجيش يستخدمها للمناورات. هذا النص يعفي الدولة من تحمل المسؤولية .ولكن الفلاحين كانوا يفكرون بلقمة العيش ولا يفكرون بالموت. وفعلاً، مات منهم من مات وعاش منهم من عاش ويئست الدولة من الأحياء والأموات فصادرت الأرض.



وتذكر أيضاً الطفلة التي ماتت في حضن والدها أمام مكتب الحاكم العسكري، حيث كان الأب ينتظر تصريحاً للسفر من قريته إلى المدينة لمعالجة طفلته المريضة.

وتشعر بالسعادة لأنهم حكموا عليك بالسجن لمدة شهرين فقط. وفي السجن، تغني للوطن.. وتكتب رسائل إلى حبيبتك، وتقرأ مقالات عن الديموقراطية وتقرأ رواية "الحرية أو الموت" فلا تحرر نفسك.. ولا تموت.

13

تريد أن تسافر إلى اليونان؟

تطلب جواز سفر، فتكتشف أنك لست مواطناً، لأن أباك أو أحد أقاربك قد هرب بك أثناء حرب فلسطين، وقد كنت طفلاً .وتكتشف أن أي عربي ترك بلاده في تلك الفترة، وعاد إليها متسللاً، قد فقد حقه في الجنسية.

تيأس من جواز السفر، وتطلب جواز مرور. تكتشف أنك لست مقيماً في إسرائيل، لأنك لا تحمل شهادة إقامة. تحسب الأمر نكتة، فتسرع لترويها لصديقك المحامي: "لا أنا مواطن هنا – ولا أنا مقيم. أين أنا ومن أنا". تفاجأ بأن القانون معهم، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك. تقول لوزارة الداخلية: أنا موجود أم غائب؟ أعطوني خبيراً في الفلسفة لأثبت له أنني موجود.

ثم تدرك أنك موجود فلسفياً .وغائب قانونياً.

تفكر بالقانون. ما أشد براءتنا حين نظن أن القانون وعاء للعدل والحق. القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم، أو بدلة يفصلها على قياسه. وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي. وترى مرة أخرى أن الحق أمنية تقترب من الوهم إذا ابتعد عن سند القوة، وأن القوة تحوّل الوهم إلى واقع. وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الإسرائيلية.

وتسعى من جديد. أمرك لله وللقانون. تحصل على شعادة تثبت أنك موجود، وتحصل على جواز مرور. ولكن من أين تمرّ؟ أنت مقيم في حيفا، والمطار قرب تل أبيب. وتسأل الشرطة تصريحاً للسفر من حيفا إلى المطار فترفض. يتدخل المحامي وأعضاء برلمان، ولكن الشرطة ترفض. ثم تظن أنك أكثر خبثاً منهم ودهاء، فتغيّر طريق مرورك، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول إلى الميناء. تبتهج لذكائك. تشتري تذكرة، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك أحد. وقرب السفينة يلقون القبض عليك، ويقدمونك إلى المحكمة. وما زلت مصراً على أن القانون معك هذه المرة.

وتكتشف في المحكمة أن ميناء حيفا جزء من دولة إسرائيل وليس جزءاً من مدينة حيفا، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في أية منطقة من دولة إسرائيل خارج حيفا. والميناء– في القانون – خارج حيفا – وتدان...

تقول لهم: أريد أن أدلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون: يا سادة! أنا أسبح في البحر كل يوم، والبحر تابع لدولة إسرائيل وليس تابعا لمدينة حيفا، وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول البحر.

وعندي إعتراف آخر: أنا أستمتع بالمناخ في مدينة حيفا. والطقس تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحا لدخول المناخ. والسماء التي أراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحا للجلوس تحت السماء.

ثم تطلب منهم تصريحا للإقامة في الريح، فيبتسمون!

تحتفل بعيد ميلادك؟

آه من الاحتفالات. يهجم التاريخ عليك بشراسة. هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة, والعرب يحتفلون بكل أيامهم. وتتساءل: أيامنا تمحو أيامنا من فرط المناسبات والأعياد. ألم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر. كل الأيام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة, وكلها أعياد مقررة. عندها تجد سبباً لاستمرار هزيمتك: حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد ..سننتصر.

والليلة عيد ميلادك _ الثالث عشر من آذار _ وأنت تريد مناسبة لانتزاع المرح الكاذب من جهامة الأيام الصارمة. تدعو أصدقاءك.. تتآمرون على الكآبة بالكأس والموسيقى والنكات الجارحة. يرتفع صوت الموسيقى وترقصون. تصل ضحكات الفتيات إلى نوافذ الجيران. وفي منتصف الليل يأتي البوليس . يتحقق من هويات الحاضرين ويهددك بالإعتقال: كونوا مهذبين, كفى بربرية! تسأل عن السبب فيقول لك: إن الجيران قد استدعوه ليحافظ على هدوء البناية من مرحنا. تقول له: عيد ميلاد. يقول : لا يعنيني.

ويا أيها الجيران الطيبون! لماذا لم تنبهوني أن فرحي يؤلمكم؟ لماذا تنهمر موسيقاكم المأخوذة من لحمي على نوافذي كل ليلة ولا أحتجّ. متى تخرجون من حلقي أيها الجيران متى؟

وحين تأوي إلى الفراش لتنام, تقتنع بأن الجيران كانوا على حق. في الصباح تعتذر لهم قائلاً: لا يحق لي أن أحتفل ما دمت جاركم. سامحوني أيها الجيران, فقد تبت عن الاحتفال.

تريد أن تستأجر شقة ؟

تقرأ أبواب الإعلانات في الجرائد .وتقفز إلى التليفون: سيدتي.. قرأت إعلاناً عن شقتك، هل لي أن أراها؟

تصل إليك ضحكتها وسعادتها فتمتلئ بالأمل: الشقة ممتازة يا سيدي، على الكرمل. تعال واحجزها فوراً.

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية، وتسرع إليها .تعجب بك السيدة وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسليم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة: ماذا عربي؟ عفوا يا سيد... اتصل غداً!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وفي كل مرة تعود خائبا تقرأ شرفات المنازل، وتسأل عن أصحابها الغائبين في رياح الهجرة والمنافي. كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه. إن أصحاب هذه المنازل ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها في جيوبهم وقلوبهم في انتظار العودة. العودة إلى أين؟ لو عاد أحدهم إلى منزله فهل يسمح له باستعمال مفتاحه؟أو هل بوسعه أن يستأجر غرفة واحدة في بيته. ويقولون لك: "إن الصهيونية لم ترتكب إثما. كل ما في الأمر أنها أحضرت شعباً بلا وطن إلى وطن بلا شعب."

وتسألهم عمن بنى هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك وينجبون المزيد من الأطفال في بيوت مسروقة.

تريد أن تزور أمك في العيد ؟

من شهور طويلة لم تزر أمك وأباك وإخوتك في قرية لا تبعد عنك أكثر من ساعة. تجتهد في اختيار الكلمات التي تتضمنها رسالتك إلى البوليس هذه المرة. تكتب: "أتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الخالصة التي آمل ألّا تروا فيها، هذه المرة، تصادماً مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور. وأرجو، بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلي في العيد، أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضاً للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس."

يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن لوحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد. وتبقى وحدك.

الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك وتطفئ نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير .ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك. بمناسبة.. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك .حتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة صفاء وحب، فينسونك قليلاً؟ كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطئ! تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطئ. تشرب البيرة وتصفر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظرات. تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكلها لوحدك. تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطئ لتنسى أن اليوم عيد وأن أهلك ينتظرونك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة فتتذكر كل شيء. وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك .وتسير..

عند مدخل دائرة الشرطة ينتظرك أخوك الصغير، ويقول لك: أسرع. أثبت وجودك بسرعة. أمك

تنتظرك في غرفتك .تنسى قلمك ورواياتك وتعود لاهثاً. رفضت أمك أم تأكل طعام العيد بدونك، فجاءت وأحضرت لك كل شيء.. حتى الخبز والأطباق والقهوة أحضرتها معها من القرية.. حتى زيت الزيتون والملح والتوابل.

تودعك أمك في المساء. وتغلق الباب خلفها. لا تستطيع مرافقتها حتى الشارع لأن الشمس قد غربت .ودولة إسرائيل لا تسمح لك بمغادرة المنزل بعد غروب الشمس حتى لو كان السبب وداع أمك. تجد نفسك وحيدا في العيد من جديد. تجلس على كرسي قديم، تستمع إلى كونسرت رقم 1 لتشايكوفسكي، فتبكي فجأة كما لم تبكِ طفلا.

من سنين طويلة تحمل هذا البكاء الذي ينهمر الآن. يا أمي! ما زلت طفلا. أريد أن أحمل أحزاني وأركض بها نحوك كي أصبها في حضنك. أريد أن أقطع المسافات لأبكي في حضنك.

فجأة تناديك الجارة لتقول لك إن أمك مازالت مسمرة خلف الباب. تخرج إليها، وتحقق أمنيتك في البكاء بين يديها!

أحياناً، يلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ولو فكرت ملياً، لما وجدت تهمة أخرى. فهذه الكتابة وهذه الخطابة ليست إلا مظهراً من مظاهر تجلي الحلم في لغة. ما الفرق، إذن، في نظر القانون بين الحلم الصامت والحلم الصاخب.

-كنت تنوي أن تقول كلاماً آخر.

-كنت تنوي أن تفعل شيئاً آخر.

ويدهشك أيضا أنك مستعد دائماً للإجابة عن تهمة لا تعرفها. وإذا لم يتهمك أحد بادرت إلى اتهام نفسك.

-ماذا فعلت من أجل أي شيء؟

-ماذا في وسعك أن تفعل من أجل أي شيء؟

تصعد يوم السبت، إلى الجبل ولا تدرك الفجر أبداً. تدهشك العلاقة النادرة بين الشمس والسجون. هذه الشمس – متى رأيت ولادتها لأول مرة! لا تكذب ولا تقل إنك بحثت عنها في نزهة أو معركة. أيقظوك في ساعة مبكرة ووضعوا زنديك في حديد جديد، وأخرجوك إلى ساحة السجن. وهناك شاهدت ولادة الشمس لأول مرة. لا تكذب ولا تقل إنها لم تكن جميلة. وإنك لم تشعر بالحياء.

تصعد يوم السبت، إلى الجبل. لا ليس هذا جبلاً، فالكرمل مئذنة الله. تطل منها أشجار تغطي مدافع مضادة للطائرات والجمال. لو وقف هنا مؤذن وهمس: حي على الصلاة، لامتلأت مساجد دمشق بالمصلين. ويمر عنك العشاق والجنود " هل كان البيت، والقرية. والحياة التي نخلقها هنا.. هل كانت عزيزة وحقيقية وعادلة إلى هذا الحد قبل الآن" – هكذا يقولون بعد الحرب والانتصار. وهكذا تقول أنت أيضاً بعد الحرب والهزيمة. ويقولون: " مع كل خطوة على هذه الطبيعة تتراجع الظلال وتحتلك الخضرة والأمل". وهكذا تقول: " مع كل خطوة على هذه الطبيعة

يسقط قلبي وتحتلني الخضرة والأمل والغزاة."

ويلقون القبض عليك وأنت ترتكب الحلم.

-ماذا كنت ستفعل لو انتصرتم في الحرب!؟

تجيبهم: أصعد إلى الجبل. أختار أية صنوبرة. أجلس. أمد قدمي في البحر الأبيض المتوسط. أضع يدي على شعر السماء. وأتابع الحلم كما أفعل الآن تماما.

-ما هكذا يفعل المنتصرون.

-لم انتصر مرة واحدة في حياتي لأعرف كيف يسلك المنتصرون.

وتشعر أنك لم تعد مواطنا .تاريخك أحلام تتمزق كأوراق الجرائد. وكل حلم فجيعة.

ماذا تنفعك اليرموك والقادسية والمعارك السابقة؟ ولماذا أنت! لماذا أنت! جميل هو الكرمل.. وقريبة هي السماء، والنصر بعيد .وماذا فعلت من أجل أي شيء؟ لا شيء. تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج إنسانيتك .

هكذا تصبح شجرة أو حجرا أو أي شيء في الطبيعة!

من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً

هنا ينامون, أسماؤهم كثيرة وموتهم واحد. كانوا متعبين وكان الغروب صغيراً, فسقطوا بسهولة ولم يقولوا شيئاً لأن الموعد كان مفاجئاً. وماذا لو أحيطوا علماً؟ فالوصايا معهم.. والعائلة كلها عائدة من العمل, والعالم ليس لهم.

هنا ينامون. نالوا عقاباً على جريمة غامضة. لم يخرجوا في مظاهرة واحدة، ولم يدافعوا عن الحياة والتراب إلّا بالصلوات. كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر. وكانوا ينتظرون المطر, فجاءهم الموت في غزارة المطر.

هنا ينامون. ويكبر الغروب, ويتحول إلى غابات من الشجر الجاف. لا وقت لذكراهم ولا مناسبة ولا موعد. الحجارة هي الوقت, وامتداد الغروب الذي لا لون له هو الوقت. وماذا نسميهم؟

ليست مذبحة كفر قاسم يوماً للذكرى. وليست مرحلة يغلبها النسيان. إنها تاريخ كراهية ممتد منذ استل هرتسل سيفه من التوراة وأشهره في وجه الشرق. فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد ولو كان عدواً متطوعاً. لم يقاتلوا إلا الطبيعة القاسية والبؤس الأسود. فمن أجل ماذا ماتوا؟ لم يموتوا من أجلنا كثيراً. هم ضحايا لا شهداء. وتلك هي مأساتهم المزدوجة وذاك هو حزننا المزدوج عليهم. في وسعنا أن نقول لهم ماتوا من أجل أن نعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب. ومن أجل أن نعمق عبادتنا للأرض. ولكننا لا نحتاج إلى هذا البرهان الضاري. إننا قادرون على تنمية حاسة الحب والكراهية بدون هذا الموت المجاني. فمن أجل ماذا ماتوا إذن؟

ليس من أجلنا, بل من أجل القتلة. لكي يمتلئ الصهيوني بالإحساس بأنه قادر على أن يمثل دوراً في التاريخ غير دور الضحية. من أجل هذا البرهان يتلذذ بالقتل. "إما أن أكون قاتلاً وإما أن أكون قتيلاً". هذا هو الخيار الضيق الذي وضعه لنفسه.

في المحكمة _ المسرحية, استجوب المحامي جندياً إسرائيلياً من الذين اشتركوا في المذبحة:

_هل صحيح أنك تعمل في البلاد ,وأنه طيلة حياتك أدخل إليك الشعور بأن العرب هم أعداؤنا؟

الجندي :نعم.

المحامي: هل صحيح أنك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب في اسرائيل والعرب خارجها؟

الجندي: نعم, ليس عندي أي فرق.

المحامي: هل صحيح أنك شعرت بأنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربي في كفر قاسم إذا رأيته خارج بيته, فإنك تكون قد خنت الروح التي تربيت عليها في الجيش وفي حرس الحدود؟

الجندي :نعم.

المحامي: لو كنت تسير, أيام الحرب, في أحد شوارع يافا مثلاً, ولقيت عربياً, فهل تطلق الرصاص عليه؟

الجندي: لا أعرف.

القاضي: لو جرى معك في كفر قاسم ما يلي: بعد الساعة الخامسة نادتك امرأة, وكنت متأكداً من أنها ليست خطرة ولا تهدد الأمن, فقط نادتك وأرادت أن تسألك سؤالا أو تطلب منك السماح لها بالعبور إلى بيتها. ولنفرض أن هذا كان في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة مثلاً, فلو كانت هذه المرأة تبعد 10 أمتار عن بيتها وهي تطلب منك السماح لها بدخوله. ماذا تفعل؟

الجندي: لا أسمح لها.

القاضي: ماذا كنت تفعل؟

الجندي :إذا كانت في الشارع.. أطلق عليها الرصاص.

القاضي: ولكن لم يكن أي خطر. كل مافي الأمر أن شخصاً ما بسبب خطأ ما, أو بسبب أنه لم يعلم بأمر منع التجول توجه إليك وأراد, بإذن منك, قطع الشارع. السؤال هو: إنك, رغم ذلك, كنت ستقتل كل واحد أم أنك كنت ستميز وتمتنع عن القتل في حالات معينة؟

الجندي: ما كنت أميّز.

القاضي: هل كنت ستقتل كل واحد؟

الجندي: نعم.

القاضي :حتى لو كان ذلك الشخص امرأة أو طفلاً؟

الجندي: نعم.

وهذا ما حدث فعلاً...

طفل عمره ثماني سنوات, واسمه طلال شاكر عيسى. هربت عنزة من ساحة داره إلى الشارع. لا الطفل ولا العنزة يفهمان بأن منع التجول قد أصبح ساري المفعول في القرية منذ دقائق معدودة. ركض الطفل وراء العنزة, فانهمر رصاص بندقية وأرداه قتيلاً.

لحق به أبوه, فاستأنفت البندقية مهمتها.

ركضت الأم نحو زوجها وابنها, فاستأنفت البندقية مهمتها. لحقت الإبنة نورة بوالديها وأخيها, فاستأنفت البندقية مهمتها.

وماذا كانت مهمة البندقية؟

عشية الهجوم الثلاثي على مصر عام 1956، دعا اللواء شدمي الرائد مالينكي إلى مقر قيادته، وأبلغه بالمهمات الملقاة على الوحدة الخاضعة له. كانت إحدى هذه المهمات التي أُلقيت على عاتق حرس الحدود في المنطقة الوسطى فرض منع التجول وبقاء السكان داخل بيوتهم في قرية كفرقاسم والقرى المجاورة لها، ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحاً.
ودار بين القائدين الحوار التالي كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

شدمي :يجب أن يكون منع التجول حازماً جداً، وتتم المحافظة عليه بيد قوية، لا بواسطة اعتقال المخالفين، وإنما بإطلاق النار عليهم. ومن الأفضل قتلهم بدلاً من تعقيدات الاعتقالات.

مالينكي: وما هو مصير المواطن الذي يعود من عمله خارج القرية ,دون أن يعلم بأمر منع التجول، ومن المحتمل أن يقابل في مدخل القرية وحدات من حرس الحدود؟

شدمي: لا أريد عواطف. الله يرحمه!

وبانتهاء الحوار السريع والحازم، قدم مالينكي إلى ضابط قوات الاحتياط التابع لفرقته أمراً يتضمن العبارة التالية: "لا يسمح لأي ساكن أن يترك بيته خلال منع التجول. ومن يترك بيته تطلق عليه النار. ولا تكون اعتقالات."

ودار الحوار التالي بين مالينكي وبين جنوده، كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

جندي: ماذا نفعل بالمصابين؟

مالينكي: يجب عدم الاهتمام بهم. أو يجب عدم نقلهم. أو لن يكون هناك جرحى. [حسب الشهادات التي وردت في المحكمة.]

قائد أحد الأقسام: وماذا بشأن النساء و الأطفال؟

مالينكي: بدون عواطف.

القائد نفسه: وماذا بشأن العائدين من العمل؟

مالينكي: حكمهم كحكم الجميع. الله يرحمهم. هكذا قال القائد.

في اليوم ذاته، وفي الساعة الرابعة والنصف، أي قبل سريان مفعول منع التجول بنصف ساعة فقط، كان رقيب من حرس الحدود يبلغ مختار قرية كفرقاسم بفرض منع التجول ابتداء من الساعة الخامسة مساء وحتى الساعة السادسة صباحاً. وحذره بأن منع التجول سيكون حازماً ويتضمن خطر الموت . وطلب منه أن يعلن ذلك في القرية. فأخبره المختار أن أربعمئة من كفرقاسم موجودون، في هذه اللحظة، في أماكن عملهم خارج القرية. قسم منهم في أماكن قريبة. وقسم آخر في أماكن بعيدة مثل يافا واللّد. وأنه من المتعذر عليه إبلاغهم بأمر منع التجول في مثل هذه الفترة القصيرة. بعد المناقشة وعد الرقيب المختار بأن سيسمح للعائدين من العمل بالمرور على عاتقه وعلى عاتق الحكومة!

وعلى عاتقه.. وعلى عاتق الحكومة، تمّ في الساعة الأولى من منع التجول.. بين الخامسة والسادسة مساء قتل سبعة وأربعين مواطناً عربياً من قرية كفرقاسم على أيدي حرس الحدود. ومن بين القتلى سبعة أولاد وبنات وتسع نساء.

بعد عشر سنين من المذبحة التي روت عطش الإسرائيلي إلى الدم العربي الأعزل روى أحد الذين نجوا من المذبحة بأعجوبة (صالح خليل عيسى) للشّاعر توفيق زياد شهادته على المجزرة:

"في ذلك اليوم، كنت أعمل في بيارة مع اثنين من أبناء عمي. أنهينا العمل بعد الساعة الرابعة بقليل، وركبنا دراجاتنا عائدين إلى القرية .في الطريق التقينا بعمال آخرين قالوا لنا أن في القرية منع تجول وإطلاق رصاص ولا أحد يعرف لماذا. هكذا سمعوا. بعد تردد، قررنا مواصلة الطريق. كان عددنا يزداد حتى أصبح خمسة عشر عاملا. صرنا على بعد كيلو متر من القرية. لم تكن عندنا مخاوف جدّية .احتمال واحد كنت أفكر فيه.. وهو أن يتعرض لنا ضابط قوة الحدود "بلوم". ربما سيشتمنا ويضربنا قليلا كالعادة. ولم أفكر بشيء آخر .

بعد قليل سمعنا صوت إطلاق رصاص. بدأت أحسّ أن المسألة خطيرة. قلت لابن عمي: فلنرجع. راح يشجعني. وكان معنا شيخ في حوالي الستين راح يشجعنا بآيات قرآنية. واقتربنا حتى صرنا على بعد مائة متر عن أقرب بيت في القرية.

فجأة.. ظهر رجل من حرس الحدود واعترض طريقنا: قفوا !وحتى تلك اللحظة، فإن ما كنت أتصوره هو الضرب.. لا الموت.

نزلنا عن الدراجات.. وأمرنا ذلك الجندي بالوقوف في صف:

-من أين أنتم؟

*من كفر قاسم. صحنا بصوت واحد.

-وأين كنتم ؟

*في العمل.

ابتعد عنا نحو خمسة أمتار، حيث كان اثنان من زملائه يحمل كل واحد منهما مدفعاً رشاشاً وصاح:

-احصدوهم!

ولم أصدق إلّا عندما راح الرصاص ينهمر في اتجاهنا. الرشة الأولى على أرجلنا والثانية أعلى قليلاً. وسقطت مع الآخرين. كان بجانبي عربة خيل كانوا قد احتجزوا صاحبها وأطلقوا عليه الرصاص معنا .سقطتُ خلف العربة. لا أعرف كيف. شعرت أنني ما زلت حياً فقط بعدما سقطت. وهذا كل شيء. وابتعد عنا الجنود الثلاثة نحو عشرة أمتار.

وجاءت، بعد لحظات، سيارة شحن. أوقفوها. أمروا ركابها بالنزول. كان فيها كثيرون (عرفت فيما بعد أن عددهم كان ثلاثة وعشرين) من عمال شركة أساميا للزراعة.

وتقدم منهم الآمر نفسه الذي أعطى الأمر لاطلاق الرصاص علينا، وأمرهم بالنزول والاصطفاف خلف السيارة. وبعد أن اصطفوا خلف السيارة ملتصقين، ابتعد عنهم ذلم الآمر ثم صرخ:

-احصدوهم!

هرب البعض. سقطت الأكثرية.

وعاد القتلة الثلاثة حيث كنت وباقي ركاب الدراجات القتلى، وأخذوا يكومونهم في كوم واحد، على بعد ثلاثة أمتار مني. كانوا يستعملون بطاريات ويطلقون الرصاص. إنهم يجهزون على الجرحى.

واقتربوا مني. سحبوا العربة بعيداً. دولابها الحديدي مشى بكل ثقله على قدمي. كنت أصرّ بأسناني حتى لا أصرخ. تظاهرت بأني ميت. سحبوني ووضعوني على الكوم.. وابتعدوا .

بعدما كوّموا قتلى سيارة الشحن على بعد عشرة أمتار منا، جاءت سيارة شحن أخرى كان فيها شخصان. قتلوهما. وسمعت هدير سيارة جيب آتيه من الطريق الشرقي .. من ناحية القرية. كانت مطفأة سمعت لغطا ورأيت شخصا ينزل منها. لم أفهم الكلام أذ كانوا على بعد عشرين متراً مني. ثم عادت السيارة من حيث أتت.

وسادت فترة هدوء.

ورأيت القتلة الثلاثة يسيرون ثم يجلسون على بئر القرية. ثم جاءت سيارة شحن. [لعلك لاحظت أنهم كانوا يقتلون كل فوج جديد بعيدا بضعة أمتار عن الذي قبله في الاتجاه المعاكس للقرية، حتى لا يرى الفوج الجديد مصير سابقه] ولكن السيارة التي أشرت إليها مرت عن أكوام القتلى. ويظهر أن القتلة ماعادوا يكترثون بأن يلاحظ الضحايا الجدد مصير الذين سبقوهم أم لا يلاحظون. ومرت السيارة من جانب كوم القتلى الذي كنت فيه. سمعت أصوات نسائية. كان في السيارة كما عرفت فيما بعد ثلاث عشرة امرأة من اثنتي عشرة سنة فما فوق، وأربعة رجال.

وفجأة، ركض القتلة الثلاثة وراء السيارة، وأوقفوها، وأنزلوا ركابها.

وفكرت. السيارة تبعد عني عشرين إلى خمسة وعشرين مترا. وشعرت بقوة هائلة تنفضني. ووقفت ورحت أركض. لم أدر كيف قفزت عن سياج أمامي. كنت أركض في اتجاه مواز للسيارة دون أن أعي. ومثل المطر انهمر الرصاص في اتجاهي. واختلط صوت الرصاص بزعيق النساء وأصوات ارتطام أجسامهن بالأرض. وأحسست بالرصاص يخترق ثيابي. عندها فقط عرفت أين أنا.
انبطحت. ثم رحت أحبو على يدي ورجلي في كرم زيتون. كنت أتصور الزيتون مملوءاً جيشاً وسيارات عسكرية، وأنه من الممكن أن أصطدم بهم في كل لحظة .وخلف صخرة كبيرة، تحت زيتونة، اختبأت وأنا أفكر بالموت الذي يمكن أن يغتالني في أية لحظة. وبقيت هناك حتى الصباح والدم ينزف من جرحين في يدي ورجلي. وفي الصباح اكتشف موضعي جنديان، ونقلت إلى المستشفى."

في صباح اليوم التالي، بحث المجرمون عن وسيلة لدفن الجريمة. أحضروا أشخاص من القرية المجاورة – جلجولية – إلى مقبرة كفرقاسم، وأمروه بأن يحفروا سبعة وأربعين قبراً. لم يعرف المكلفون بخفر القبور شيئاً عن الجريمة. كان عليهم أن يحفروا وكفى.. ومن يومها، كبرت مقبرة كفرقاسم وصارت مزار شعب، ودليلاً على "طهارة" السلاح اليهودي في إسرائيل!

لم تنته الجريمة بدفن الموتى. لم تنته المجزرة بجفاف الدم. فلكي تستكمل عملية القتل شروطها الإسرائيلية، كان لا بد "للضمير الإسرائيلي" المشهور بالحساسية تجاه أي خدش يصيب أي يهودي في أي مكان من العالم، من دخول تجربة الاختبار الإنساني. كان لا بد من البحث عن حقيقة وجود هذا الضمير الحساس. كان قتل العرب أو عدم الاكترات تجاه قتلهم أصبح حالة تلقائية سائدة في المجتمع الإسرائيلي الذي ربي على غريزة العداء لهذه المخلوقات التي تعكر صفو "النقاء" اليهودي في فلسطين. كان الصمت السادي أو المبتهج سائدا. ولم تخرج عن قانون الصمت إلّا بعض الأقلام التي آلمها انتهاك شروط السمعة الطيبة للسلاح اليهودي التي يروّجها دعاة الجرائم الصهيونية. لم تكن قصيدة الشاعر الإسرائيلي البارز ناتان الترمان دفاعا عن العدالة الصريعة على مدخل كفرقاسم، بقدر ما كانت دفاعا عن سمعة مجتمع الاغتصاب الإسرائيلي:

"لا ينبغي الكتابة عن شيء آخر.

لا كتابة قصة ولا قصيدة، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذي جرى في إسرائيل .

هذه هي طبيعة هذه اللغة. وهذه صفتها.

يقولون: سنجري محاكمة – وينتهي الأمر. سيتكلم العدل ويصدر حكمه.

يقولون: لنترك ذلك للإجراءات القضائية .أو لا يكفي ذلك؟

-لا. ذلك ليس كل شيء.

إن القضاء أبجدية مفروغ منها، لأنه لا يمكن للجريمة ألّا توقظ القانون.

لكن قبل المحاكمة وبعدها – سيظل ينقص هذه القضية مبدأ كبير.

لا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني حدثت فيه مثل هذه النذالة، دون أن تثور فيه رعشة وغضب.

غضب جماهيري يحمل السخط الإنساني والفردي .

سخط الرجال والنساء.

ذلك لأنه بدون هذا يكون القضاء ردّ فعل ميكانيكي، مبرمج وآلي،

ردع فعل يدور في فراغ وليس وسط شعب واع متيقظ الحواس."

ولقد دمّر الكاتب بوعز عبرون ادعاء السمعة الأخلاقية والروحية التي يروّج لها دعاة السلطة الإسرائيلية، فكتب "منذ الجريمة ونحن في امتحان. لقد وضعت استقامتنا وإنسانيتنا وشجاعتنا في امتحان فشلنا في اجتيازه". وعدّد أربعة مذنبين" :الأول، الصحافة. فباستثناء صحيفتين أو ثلاث صحف من الشواذ، اتفقت الصحافة على مؤامرة صمت وأسدلت ستاراً على الجريمة. فبدلاً من الكتابة عن القتل والجريمة في كفرقاسم، كتبت عن "مصيبة" وعن "خطيئة" وعن "الحادث المؤسف". وحين كتبت هذه الصحف ضحايا المصيبة لم يعد واضحاً عمن تتحدث: عن القتلى أم عن القتلة. "المذنب الثاني هو القيادة الدينية والأوساط الدينية في البلاد. هؤلاء الذين يطلبون سلطة لكي " يسيطر الخلق اليهودي" و "روح جدنا إسرائيل". هؤلاء صمتوا بلا مبالاة كاملة. حتى ولا شخصية دينية واحدة هبّت لتنقذ شرف الديانة اليهودية". "المذنب الثالث هو القيادة الأكاديمية. فباستثناء قليل من "المجانين" لم يوجد تقريباً بروفسور أو محاضر واحد يصرخ "هذا قتل". "والمذنب الرابع هو القيادة الأدبية – الفنية. فمنظمة الأدباء التي عرفت دائماً أن "تحتج بكل شدة" وأن "تتوجه إلى ضمير العالم المستنير" صمتت ومازالت صامتة وستصمت". وأضاف الكاتب: "وماذا عن الأحزاب التي كانت تجلس طوال ذلك الوقت كله في الحكم ملوّحة بشعارات السلام والعدل وأخوة الشعوب؟ أين كان الثوريون؟ وأين كنا نحن.. المواطنين البسطاء الذين أحسسنا بالقرف والاحتقار، ونحن نشاهد رقصة الجن؟."

رقصة الجن هي المحكمة.

وهي الفصل الثالث في الجريمة التي بدأت بالقتل ثم الصمت.. ثم المحاكمة. تمهيداً للمحكمة – التي راوغت الحكومة في إجرائها – تجري مصالحة مهينة بين حكومة إسرائيل وبين ذوي ضحايا كفرقاسم!

خصصت وزارة الدفاع مبلغ مائة ألف ليرة ثمنا لخمسين ضحية عربية.

أرخص ثمن في التاريخ.

وتمت التسعيرة بالشكل التالي: ألفا ليرة لمن هو في الخامسة عشرة. ألف ليرة سعر ما دون الثامنة. المتزوج وليس لديه أولاد ثمنه ثلاثة آلاف ليرة. المتزوج وله ولد واحد يساوي أربعة آلاف ليرة. المتزوج وله أكثر من ولد يساوي خمسة آلاف ليرة. وبالوسائل الإسرائيلية، المعروفة وغير المعروفة، فرضت السلطات المصالحة والتعويضات.

ثم.. بدأت محاكمة القتلة، بعدما أدين القتلى!

بعد سنتين من وقوع الجريمة، أصدرت المحكمة التي استغرقت وقتا طويلا قراراتها. ما أجمل أن توزع السلطة العسكرية أدوارها بين قاتل وقاض وشاهد.

وفي حكمها "العادل" قررت المحكمة أنها وجدت الرائد شموئيل مالينكي والملازم جبرائيل دهان مذنبين في قتل ثلاثة وأربعين مواطنا. فحكمت على الأول بالسجن لمدة سبع عشرة سنة وعلى الثاني خمس عشرة سنة. أما المتهم الثالث شالوم عوفر، الذي ارتكب بصورة رهيبة أكثر عمليات القتل – كما جاء في كتاب المحامي صبري جريس استنادا إلى قرارات المحكمة المركزية – فقد وجد مذنبا مع دهان بقتل 41 مواطنا وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. أما المتهمان الرابع والخامس – الجندي مخلوف حريش والجندي إلياهو إبراهام – فقد وجدا مذنبين بقتل 22 مواطنا. والجندي ألبرت فحيمة، والجندي ادموند نحماني – فقد وجدوا مذنبين بقتل 17 مواطنا، وحكم على كل واحد منهم ومن الاثنين السابقين بالسجن لمدة ثماني سنوات. وبرأت الحكمة المتهمين الثلاثة الباقين.

ومع أن هذه الأحكام الخفيفة – التي تنطوي على تشجيع مزيد من القتل تحت غطاء التسامح القانوني – قد أثارت دهشة المواطنين العرب وقلقهم على مستقبلهم، فإنها قد أثارت سخط المتطرفين اليهود في إسرائيل الذين ادعوا أن القتلة قاموا بواجبهم القومي. ولم يتورع بعض الصحف الإسرائيلية عن المطالبة بإصدار العفو عن القتلة.

ولم يكن مدهشاً ومفاجئاً أن يستجيب المسؤولون الإسرائيليون إلى هذه المطالبة الشعبية، فقد وجدت المحكمة العسكرية العليا للاستئناف أن الحكم الصادر على القتلة كان قاسياً جدا ومن واجب تخفيفه، فأصدرت حكماً بخفض الحكم على ماليكني إلى 14 سنة، وعلى دهان إلى عشر سنوات، وعلى عوفر إلى تسع سنوات. ثم تدخل رئيس أركان الجيش فخفض الحكم على ماليكني إلى عشر سنوات، وعلى دهان إلى ثماني سنوات، وعلى بقية القتلة إلى أربع سنوات.

وجاء رئيس الدولة ليعمق مبادئ عدالة القتل الإسرائيلي، فمنح كلاً من ماليكني ودهان عفواً جزئياً وخفض الأحكام عليهما إلى خمس سنوات!

لقد أخذت سلسلة التخفيفات هذه شكل المباراة في تقديم المكافآت إلى القتلة تقديراً لنجاحهم في القتل بدم بارد، فتبرعت "لجنة إطلاق سراح المسجونين" بخفض الثلث من مدة السجن لكل واحد من المحكوم عليهم. وأطلق سراح آخر واحد من القتلة في بداية عام 1960. ووجد المسؤولون الإسرائيليون أن جبرائيل دهان الذي قتل 43 عربياً خلال ساعة واحدة يستحق وظيفة مدنية جديرة بصلات الدم التي تربطه بالعرب، فأعلنت بلدية الرملة في العام ذاته أنها قبلت دهان للعمل فيها بوظيفة" المسؤول عن شؤون العرب في المدينة."

وماذا عن اللواء شدمي الذي أصدر أوامره إلى مالينكي؟ وأوصاه بأن ينشر بين جنوده تعاليم "بدون عواطف"؟ وماذا عن المصدر الكبير الذي تلقى منه شدمي الأوامر العليا؟ إن محاكمة شدمي، بصورة حقيقية، ستكشف النقاب عن المصدر الأعلى للأوامر. ولذلك، قدم شدمي أمام محكمة عسكرية صورية عيّن أعضاءها رئيس أركان الجيش.

تمت المحاكمة بشكل سريع. ووجدت المحكمة أن شدمي مذنب في "خطأ تِقني فقط". ولهذا حكمت.. بتوبيخه. وبدفع غرامة مالية قدرها: قرش إسرائيلي واحد.

لعل قرش شدمي أثمن عملة في تاريخ الجرائم. ستطول شهرته كثيراً مادام للجريمة مكان على سطح الكرة الأرضية. إن المسؤول عن قتل تسعة وأربعين مدنيا بريئا في قرية آمنة يعاقب بدفع قرش واحد. هذا لا يحدث كثيرا.. لا يحدث كثيرا في التاريخ، إلّا عندما يتعلم أبناء ضحايا النازية كيف يقلدون قتلتهم. هذا هو الدرس الذي تعلمه أصحاب التطبيق الصهيوني على أرض فلسطين.

وماذا كتب آحاد هعام – المفكر اليهودي الذي كرّس حياته لدعوى الصهيونية ومقاومة اندماج اليهود في أوروبا الشرقية؟ ماذا كتب حين شاهد، بعينيه سلوك المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام 1891، وقبل أن ينشئوا دولتهم؟ كتب: "وماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين؟ كانوا عبيدا في بلاد الدياسبورا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها. ولقد ولد هذا التحول المفاجيء في نفوسهم ميلا إلى الاستبداد، كما تكون الحال عندما يصير العبد سيداً. وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم الأفعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف بوجه هذا الميل الخسيس والخطير في آن واحد". إذا كان آحاد هعام الصهيوني الكلاسيكي قد اشتكى من شراسة المهاجرين الأوائل، قبل أن ينشئوا دولة ويملكوا جيشا وسلاحا، فماذا من الممكن أن يكتب المراقب الآن؟

لم تكتف غريزة الجريمة لدى الحكم الإسرائيلي بقتل 49 عربيا في كفرقاسم، وتبرئة المنفذّين، وبعدم محاكمة المسؤولين لأن ذلك يعني محاكمة الكيان الإسرائيلي من أساسه. لم تكتف بذلك، وإنما امتلكت من السادية والنفاق قدرا جعلها تبتز من الضحايا اعترافا بالشرعية وتأييدا للسلاح الفاتك. فبالوسائل الإسرائيلية ابتزت السلطة الإسرائيلية، بعد المجزرة مباشرة، تأييداً للحزب الحاكم في الانتخابات البرلمانية. فقد حصل الحزب الحاكم القاتل عل الأغلبية الساحقة من

أصوات الناخبين في القرية المنكوبة. فصارت جريمة مزدوجة: قتلوهم.. وأرغموهم على إعلان الولاء. لقد استجوبوا الجثث، واستنطقوها لتقول للغزاة القتلة :نعم!

أراد القتلة أن يصوروا ما حدث في كفرقاسم بأنه حادث، فهل هو حادث.. أم هو طبيعة ملازمة للممارسة الصهيونية على أرض فلسطين، وسياسة مستمرة تجاه المواطنين العرب الواقعة تحت الأمر الإسرائيلي؟ لقد قالوا عن دير ياسين أيضاً أنها حادث، فهل يكون الحادث حادثاً إذا تكرر عشرات المرات. إن القتل بدم بارد، والعنف المسلّح هما فلسفة إسرائيلية, وقد ملأ الفكر الصهيوني صفحات كثيرة لإعطاء العنف والشرعية مستمدة من الحاجة إلى قيام إسرائيل والمحافظة عليها. وقد نلاحظ أن بعض الصهيونيين الليبراليين إنما يعارضون بعض مظاهر العنف عندما يضيع الفارق بين العنف الذي يرمي إلى تحقيق هدف سياسي وبين العنف الذي يرتكب جريمة ليس وراءها هدف غير الانتقام الحيواني. وهذا ما يفسّر غضبة آحاد هعام الشهيرة، لأن الموقف المتكامل من معارضة العنف الصهيوني إنما يستدرج صاحبه إلى رفض القاعدة القانونية التي نشأ عليها كيان إسرائيل، وهي العنف المسلّح. ولكن ما جرى في كفرقاسم يتجاوز مفاهيم العنف المسلّح الذي يجد له تبريراً سياسياً لدى البعض. فلم تكن الجريمة هناك مثل جريمة دير ياسين مثلاً التي هدف بعض الغزاة منها إلى دبّ الفزع بين العرب لدفعهم إلى الرحيل وحققت أهدافاً سياسية لمصلحة التوسع والانتصار الإسرائيليين. ولم تكن الجريمة "وقائية "للمحافظة على أي مطلب من متطلبات الأمن الإسرائيلي، إذ لم يهدد عمال كفرقاسم وفلاحوها وأطفالها ونساؤها أمن دولة إسرائيل، ولم يعرقلوا اندفاع جيشها نحو سيناء !الجريمة هنا خططت ونفّذت بدون "ضرورة" و"حاجة" إذا جاز التعبير. إنها جريمة من أجل جريمة. إنها أعلى أشكال الجريمة التي تحركها غرائز القتل والانتقام. وقد عبّر عن هذا النوع من العنف المسلّح الإرهابي الشهير مناحيم بيغن، حين كتب إن أساليب العنف التي لجأ إليها الصهيونيون قبل عام 1948 هي الطريق الوحيد الفعّال لتأمين الأهداف القومية في فلسطين، وأنها "أشبعت رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام". كان ذلك قبل 48، فلماذا في كفرقاسم 56؟ لعل فلسفة الوجود تحتاج كما يفهمها الصهيوني الإرهابي "أنا أحارب إذن أنا موجود" تحتاج دائماً إلى ممارسة مستمرة وإلى برهان جديد. ولعل الصهيوني الإسرائيلي الذي يحمل رغبة مكبوتة – كما يقول بيغن – محتاج إلى تجديد وجوده بطريقة وحيدة هي الحرب، وإلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة لجدارة التفرد، وهي القتل والقتل والقتل. " كن أخي وإلّا قتلتك". هكذا يضيف فيلسوف الجريمة. وليس في وسع العربي الواقع في الأسر الإسرائيلي أن يؤاخي قاتله. وهكذا تبقى حلقة القتل مفرغة بلا نهاية.

ليس في الفكر اليهودي نهاية للمبررات التي لا تحصى للعنف المسلّح الذي لا يفتقر إلى استلهام الديانة أيضاً. ولهذا، صار يهوشع بن نون بطلاً إسرائيلياً معاصراً بسبب وحشية أسلوبه في التعامل مع الشعوب غير اليهودية. هذه الوحشية التي تشكل تشابها تاريخيا مع التطبيق الصهيوني اليوم يحتاج له أصحاب القرار السياسي في إسرائيل كمصدر وحي وإلهام، وكركيزة تراثية لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على اعتبار أن كل جريمة تصير شرعية وقانونية من أجل تحقيق الهدف الصهيوني. وقد بلغ التطرف باستحضار إرهاب يهوشع بن نون مدى دفع بعض "العقلاء "الإسرائيليين الدعوة لتحريم تدريس يهوشع بن نون في المدارس لأنه يشكل إفساداً لروح الشباب يجلعه عاجزا عن التعود على الحياة، بسلام، مع العرب في حالة تغير ظروف العلاقات بين العرب واليهود.

إن ما تدّعيه إسرائيل من حساسية تجاه ما تعدّه ظلما لاحقا باليهود في أي مكان بالعالم، سرعان ما يتحول إلى عمل إنساني مشروع حين تمارسه ضد العرب. وإن ما كان يعتبر وحشية عندما كان يمارس ضد يهودي، سرعان ما يتحول إلى واجب قومي يهودي عندما ينفذ بالسلاح اليهودي "الطاهر" عندما يتم تطبيقه ضد العرب. وليس عربيا القائل إن الصهيونية" تعتبر العمل الواحد حقاً وصوابا إذا قامت هي به وخطأ غير مشروع إذا قام به غيرها."
القائل هو موشيه سميلانسكي الذي قال إن القومية اليهودية في فلسطين مبنية على أنانية عسكرية تؤمن بالعنف وبعيدة كل البعد عن الإنسانية.

خلاصة القول أن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل ضد السكان العرب المدنيين والتي تمثل مذبحة كفرقاسم تجسيدا صارخا لها، ليست ناشئة عن تطبيق "رديء" للتراث الصهيوني "الجيد"، ولكنها تطبيق جيد للتراث الصهيوني الرديء. وهذه النقطة بالذات هي التي تشكل صخرة صماء وعقدة مستعصية الحل أمام الذين يدافعون عن مباديء الصهيونية "النظيفة" ويعترضون على التطبيق الإسرائيلي القذر لهذه المبادئ، أو الذين يعترضون على "الانتهاكات" الإسرائيلية لقداسة " التعاليم الصهيونية. إن الاعتراض على الممارسة الإسرائيلية سيبقى محاولة لاجتراح المستحيل إذا بقي أسير الالتزام بفكرة الدفاع عن سلامة الإيديولجية الصهيونية، وضرباً من ضروب خداع النفس وخداع الآخرين.

إن تراث الصهيونية وينبوعها" الصافي" هو الذي حلّل العنف والجريمة. كان جابوتنسكي

واضحاً مع نفسه حين قال لمستشار الطلبة اليهود في فيينا: "تستطيع أن تلغي كل شيء: القبعات، والأحزمة، والألوان، والإفراط في الشرب، والأغاني. أما السيف فلا يمكن إلغاؤه. عليكم أن تحتفظوا بالسيف، لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل. إن السيف والتوراة أنزلا علينا من السماء."

ليس التحدي الذي اختارته الصهيونية دائراً على القيم الإنسانية والتحدي الحضاري كما تدّعي، ولكنه التحدي حول أولوية الانتماء إلى العنف المسلّح وإلى السيف. وقد بلغت المنافسة حول هذه الصفة بمفكر صهيوني آخر هو جوزيف بيرديشفسكي حداً جعله يعترض على صحبة السيف والكتاب، فقال: "إن كلاً من السيف والكتاب يناقض الآخر بل ويقضي عليه كلياً. إن الفترة التي يعيشها الشعب اليهودي هي فترة عصيبة. وفي مثل هذه الفترات يعيش الرجال والأمم بالسيف وليس بالكتاب. إن السيف ليس شيئاً مجرداً أو بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها، أما الكتاب فليس كذلك."

مثلما لا نجد نهاية، في الفكر الصهيوني، لمبررات الإرهاب والعنف المسلّح المستلهمة من الأحكام السياسية والذرائع الدينية، وعقدة الكيت التاريخي، كذلك لا نجد على الطبيعة الإسرائيلية نهاية لهذا التطبيق. دعا الرواد الأوائل إلى العنف، ومارسه الجنود الإسرائيليون وحرس الحدود، وادعى الدعاة أن السلاح الإسرائيلي أطهر سلاح وأن الغزاة الإسرائيليون هم أجمل غزاة. وقد برهنوا هذه المزاعم، مرات كثيرة، وأثبتوا "جمالهم وطهارتهم" في كل طرائق تعاملهم مع السكان العرب، وبالذات مع عمال كفر قاسم وأطفالها. بغرامة قرش واحد فقد يسدل الستار على ذبح 49 مواطناً.

وحين كنا نحاول دخول كفر قاسم لمشاركتها في إحياء ذكرى ضحاياها، كان حرس الحدود إياهم ...القتلة إياهم يضربون حصاراً حول القرية الثكلى، ويمنعون الزوار من نقل التعازي . هؤلاء القتلة الأبطال لماذا يخافون إلى ذكرى ضحاياهم؟ ليس لتأنيب الضمير هو الذي يدفعهم إلى قمع الذكرى، بل الكراهية والسادية، والشعور بالحاجة إلى برهنة وجودهم ...موجودون دائماً مع الجريمة، وكأنهم يجددون عملية القتل كل سنة بمحاولة قتل الذكرى .ولكننا نعرف كيف نحيي ذكرى ضحايا المذبحة... ولقد عرف الشعب العربي في فلسطين كيف ينتقم لأبنائه: شدّ على تربة الوطن بأظافره وأسنانه، وقال للغزاة: لم أوقع صك الغفران. ومضت السلطة في الانتقام من هذا الشعب، وبلغ الانتقام أزجه حين دشّنت مدينة السرقة "كرمئيل" على أنقاض

أراضي ثلاث قرى عربية في الجليل يوم ذكرى مذبحة كفرقاسم بالذات، لتظهر للعرب حقيقة نواياها تجاههم، ولتدلهم على حديّ السيفالذي تحاربهم به: القتل مرة، ومصادرة الأرض مرة أخرى.

لم تكن كفرقاسم قرية ذات شأن في فلسطين. ولا تستطيع الرؤيا الشعرية أن تستخرج منها لوحة جميلة. ولكن ذلك الغروب الواقف على حافة الدم جعل كفرقاسم المجهولة ملحمة شعب صابر. وحين وقفنا على مدخلها، ذات مساء، أحسسنا بضراوة الفرح المكبوت فينا. وعرفنا الجريمة التي ننال عليها كل هذا العقاب. وأدركنا أن الحجارة هي الوقت، فجلسنا عليها نغني للوطن.

الفرح.. عندما يخون!

1

علّموك أن تحذر الفرح, لأن خيانته قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تغزوك الأيام بذكريات لا تشبهك. كنت خارجاً، للتّو، من الخامس عشر من أيار/ مايو. وكنت عاجزاً عن الالتصاق بالأشياء التي ابتعدت عن مسام جلدك. وقد مات جدّك الذي أوصاك بمراقبة الرابية المطلة على مصادر موته. أخوك يحب الخطابة, فوقف على الأطلال ووعد الجنازة القادمة أنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. لم تبلغ الثلاثين, ولكن محاذاة الموت تعطيك الحكمة. ومن الحكمة ألّا تبدو عاطفياً في حضرة الآخرين.

تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسل من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشد العلاقة بين الموت والحركة. وكنت خارجاً، للتو، من ذكرى الخامس عشر من أيار/ مايو. كنت مسرعاً إلى البيت لا لتسبق الشمس الغاربة, وإنما لتهرب من الأضواء المتفجرة من الشوارع في عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك في المرة الاخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

وفي كل ليلة، من كل عام, في مثل هذا اليوم يتجدد انتحارك الذي لا يشعر به أحد. الانتحار غالباً ما يكون تظاهرة. ولكن انتحارك سرّ. يهبط عليك يوم, يثقب جلدك وينتشر في عظمك رويداً رويداً كزلزال صغير لا ينتهي, لا يكبر ولا تنفجر.

الانفجار _ هذا ما يشغل بالك .تنتظر هذه النهاية منذ عشرين سنة, ولا تأتي. لأن حالتك لا تفهم ولا تصل. ما أسهل أن تكتب قصيدة تجهض الانفجار. وما أسهل أن تحاور خصمك لتثبت ماذا؟ أن لك حقاً؟

وماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

ولو أعطوك كل شيء. فماذا أنت فاعل. هل ترضى؟ هل تكف عن البحث عن نقطة انفجار؟ وهل تأمن الفرح؟ إن من سلبك كل شيء لن يعطيك أي شيء. ولو أعطاك أهانك. "كن عاقلاً واذهب إلى الطين" هكذا قلت لنفسك. ولم ترد على سؤالي: لو أعطوك كل شيء، فهل تأمن الفرح؟ وتلتفت إلى أيامك وتصنف أجمل الشعارات التي حملتها وسرت بها إلى السجون:

تصريح سفر..

حرية تعبير..

مساواة..

وفجأة تضحك. تضحكك المساواة. وأنت تناضل لكي لا تأتمن الفرح.. ولقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح. لأن خيانته قاسية. فمن أين يأتيك فجأة؟

تنتظر شيئاً آخر..

حالة الانتظار هي المبرر الوحيد لاقتناعك بمطالب تبقى صالحة، طيلة السنة، وتسفر عن سماجتها في منتصف أيار/ مايو دائماً.

لست مسؤولاً عن شيء مما مضى. ليس الماضي من صنع يديك وأخطائك. ولكنه ميراثك. هل ذهبت إلى طبريا مثلاً؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذه المدينة التي تحمل بحيرتها وتنزل إلى تحت. وأنت لا تراها. هل تكون تافهة رغبتك الجامحة في لقياها؟ وهل يكون كفاحك رخيصاً لو طالبت بالسفر إلى مدنك؟ لا. ولكنك تنتظر. ولماذا ترى طبريا ما دامت المدافع العربية تطل عليها وتعدك بها؟

تنام وجهاز الراديو ساهر في سريرك. تعرف أسماء المذيعين في كل الإذاعات العربية، ومواعيد نشرة الأخبار، وتلاوة آيات من الذكر الحكيم، والأغاني والتمثيليات. وكلها جميلة. كل ما يفعله العرب جميل لأنه ظهرك. لا يعترض أحد على أصوات مضيفات الطائرة. فكلها جميلة ما دامت تعلن عن قرب هبوط الطائرة في مدينة ما. وكل المذيعين والعاملين في الإذاعة وعدوك بسلامة الوصول إلى لندن التي تشتهيها. ليس من حقك، الآن، أن تعرف الحقيقة لأن الحقيقة قد تعني انتهاء حقك في الانتظار. ويوم ثار الجدل بين النقاد على تحديد شخصية " جودو" اللامعقولة، لم تفهم دواعي الضجة، وكنت أذكى من كل النقاد ومن بيكيت نفسه. فمن انتظر عشرين عاماً يعرف جودو.

وهل ذهبت إلى قيسارية؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذا الشاطئ الذهبي، وتشعر بالنشوة. وحين كانت العرب تخطئ في نطق أسماء مدنك وقراك لم تكن تغضب عليهم ولا تعاتبهم. كنت تلجأ إلى دليل الأسماء العبرية وتفهم. ثم تبتسم للأخطاء العربية كما يبتسم الأب لأخطاء طفله الذي يتدرب على النطق.

وكنت تتساءل أحياناً:

ما هي العلاقة بين الغزاة وبين هذه الحجارة والمياه والأحجار؟ ولم تفطن إلّا في وقت لاحق إلى أن أدبهم السياسي والوجداني شديد الالتصاق بها بشكل يثير الدهشة، ويتعامل مع جزئيات وأشياء لا تراها. ليس هذا ذنبك. فمنذ بلغت الصبا حدود إقامتك وصارت كتابتهم وسيلتك الوحيدة للتعرف إلى وطنك، مفارقة غريبة، أليس كذلك؟ باطل الأباطيل والكل زائل. ثم تفطن في وقت لاحق أيضا إلى أن جانبا من جوانب صراعك هو التنافس الوجداني على حب هذه الأرض، وليس الدعوى الذهنية فقط. لقد زوجوا الدعوى بالعاطفة. كيف؟ هل يكون الغازي عاشقاً إلى هذا الحد؟ لم يكتب الفرنسيون والأمريكيون غزلا في غابات فيتنام. ولكنهم يموتون وبدون حب. تخاف الفكرة، وتخشى أن يتحول المثل إلى حجة عليك، ولكن الجزائر تنقذك فيهدأ بالك وترتاح إلى جدوى الانتظار.

وقد سألوك كثيرا:

خياليون.. خياليون أيها العرب. مادام انتماؤكم إلى هذه البلاد حقيقيا وعميقا فلماذا لا تكتبون شعرا في الطبيعة؟

الطبيعة.. ما هي؟ تخرج إلى الشرفة فيسرقك المساء ويعيدك الحارس. ومن ثقب سيارة الشرطة تعطي عينيك للطبيعة .كيف يجتمع الأزرق والأخضر والبرتقالي في إناء واحد ولا يختلط؟ تحافظ الألوان على استقلال جمالها وتجانسها المشترك: ينزل الكرمل إلى الشاطئ ليبدأ البحر. ينتهي البحر ليبدأ المساء. ينتهي المساء ليبدأ التحقيق:

-خيالون.. خياليون أيها العرب.

*لماذا؟

-لأنكم لا تعترفون بالزمن!

*ماذا تعنون؟

-مرت 19 سنة، وتطالبون بالأوهام.

*تعلمنا صداقة الوهم منكم.

-ماذا تعني؟

*مرت 2000 سنة، وتطالبون بالأوهام.

-هذه بلادنا.

*وهذه بلادنا.

-نحن أقوى.

*خياليون أيها الإسرائيليون.. خياليون.

-لماذا؟

*لأنكم لا تعترفون بالزمن.

-ماذا تعني؟

*القوة لا تخلق الحق. ونحن أقوى مع الزمن.

-ولكنها بلادنا، سندافع عنها.

*نحتكم إلى السلاح إذن.

-لقد احتكمتم. ونحن لم نحتكم بعد .

وكان حزيران/ يونيو خلف الباب

كنت تنتظر

وكانوا ينتظرون.

كن متفائلاً، واذهب إلى حزيران/ يونيو .

من هنا، جاءك الفرح فجأة. وقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية.

صار الإسرائيلي العادي متأرجحاً بين النص والخبز. كان يقول "عدت "إلى أرض الميعاد تحقيقاً لرسالة البعث التاريخي للأمة اليهودية العظيمة. وفي حالات أقل مثالية كان يقول "جئت" إلى أرض الأمان لأنجو بجلدي من الاضطهاد النازي" .للغربان وطن وليس لي وطن". وفي حالات أكثر واقعية يقول "أعيش" على أرض إسرائيل، وليس لي من هدف إلّا الأمن والعيش بسلام. ولم يقرأ الحكمة القائلة "عدلت، أمنت، فنمت."

ولقد خفّ الإحساس الوطني الأسرائيلي، قبل حزيران/ يونيو، عندما واجه حقيقة الفارق بين "أرض الميعاد" في أناشيد الطلائع "أرض السمن والعسل وحلّ المشكلة اليهودية" وبين الواقع الذي أخذ شكلا شديد القسوة في أيار/ مايو، عندما وصلت البطالة والغلاء ذروة خطيرة.
وصارت الهجرة من إسرائيل لا إلى إسرائيل هي القضية المطروحة، وانتعشت حاسة السخرية اليهودية لدى الإسرائيلي الذي يقول: "يرجى من المسافر الأخير ألّا ينسى إطفاء النور في مطار اللد". والتهمت الكتب التي تتندر على رئيس الوزراء كل الكتب الصهيونية القومية. فأرض السمن والعسل ليس فيها خبز وزبدة .ثم التقت الأزمة الاقتصادية الخانقة بالتوتر الشديد على خطوط الهدنة، فتأرجح الإسرائيلي العادي، هذه المرة بين المطلب الاقتصادي والجسد وصارت الصحف الإسرائيلية تتهم العمال المضربين عم العمل بالعمالة للمنظمات الفدائية الفلسطينية.
وصار في وسع المراقب أن يلاحظ أن نقمة الإسرائيليين على مؤسستهم تصرف إلى الحدود.

الأمن – أولاً، والخبز – ثانيا. والمؤسسة الإسرائيلية تنمي حاسة الخوف اليهودي باستمرار لتحقق أكثر من هدف: امتصاص مطالب الناس الاقتصادية، وتوظيفها في مسألة الحرب. اندفع الإسرائيليون إلى القتال بشراسة تحت غطاء "الدفاع عن النفس من خطر الإبادة". وإيهام العالم الخارجي بمدى خشية الإسرائيلية من الغزوة العربية.

وكان رجل الشارع خائفا. خائفا حقا.

وكان أصدقاؤك الإسرائيليون يزورونك كل مساء. يشربون حتى الثمالة كأنهم يشربون الحياة. "من يدري، فقد تنشب الحرب غداً، وقد لا نعود"، كان الوطن يتحول عندهم إلى كارثة، من أجل هذه النهاية جئنا؟

لم يعد الإسرائيلي الحي خيراً من اليهودي الميت. وكنت تتساءل: كيف استطاعت المؤسسة

الإسرائيلية أن تشحنهم بكل هذا الخوف المسرحي. كانوا فعلاً يمثلون، ربما دون أن يدري معظمهم، مسرحية المسافر إلى الموت. اليأس... اليأس. إن اليأس طاقة تفجيرية .وكانوا يسألونك كيف ننجو؟ وكنت تكلمهم عن حقوق اللآخرين، فيضيقون ذرعاً، ويقررون :ليس أمامنا إلّا القتال. لا مفر. لن نموت بلا سلاح. الموت في ميدان القتال خير من لا الموت في البيت. وتتفجر فيهم حاسة مسادة الانتحارية. ويشربون بشراهة كأنهم يشربون الحياة. ويتصالح العاشق مع عشيقته. وتتحول العذارى إلى أمهات بسرعة مدهشة .ويعود المطلّق إلى زوجته. وتأتلف الأحزاب المتعارضة وتنشأ جبهة قومية، ويبحثون عن بطل قومي.

ويودعونك ولا يعودون.

وحين تسير في شوارع المدينة، تكون وحدك. لا لونك يعلن هويتك، ولا مطاردة البوليس لك. إن الشارع نفسه يطاردك ويعلنك. لأنك الشاب الوحيد. ومن يمشِ في الشارع في تلك الأيام يكن عربياً. ويلعنك الأطفال والشيوخ. فتخجل من السير في الشوارع. أكشاك الفلافل والسندويشات خالية. دور السينما خالية، البلاد كلها خالية من الشباب. صحف كثيرة لا تعرف من يقرأها ومن يوزعها ولكنك ترى أن أولاد المدارس الصغار هم الذين يوزعون زجاجات الحليب والبريد.

وعلموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. فمن أين جاءك فجأة؟

يقترب الانتظار من الانفجار. وتسألك أمك أن تعتني بسلامتك. والمصير _ كل المصير يأخذ شكل طلقة. ترى الحرب و لا ترى موتا .تخرج منك الذكريات دفعة واحدة. ولا وقت للتصور القادم. تذكر، فجأة، أن فلسطين بلادك. يأخذك الاسم الضائع إلى عصور ضائعة. كأنّ هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن. حرموك من الأناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها. الاسم يعود... يعود أخيراً من رحلة البعث. تفتح خارطتها كأنك تفتح أزرار ثياب حبيبتك الأولى لأول مرة: كان شيء يشبه الفضة – كانت طبريا. تصعد القدس إلى خصر إله. صفد طارت إلى أول قبلة. وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر. ترى إلى الخارطة وتصفر لحنا مرحا مرحا. وتنسى حيفا لأنك دائماً تنسى قلبك. تشعر بصدق عميقة مع الأيام. لم تكن قاسية إلى الحد الذي تتصوره، ولكن مزاحها كان سمجا أحيانا. دنيا! تمد أصابعك الطويلة إلى أجزاء المرأة الذكية النائمة على ورق صقيل: الخصر رفيع يشربه البحر وخطوط الهدنة. ثم تقبّلها وتعانقها وتموت من اللذة – الوعد. ولا تقف على أرض. سابح... سابح مفتون بالغموض .وتذكر طفولتك القاسية وطفولة المستقبل والأشجار. ثم تقطع شوارع عكا، وتقف طويلا عند شارع بيروت. كنت تشعر بالمعجزة يوم كان أصدقاؤك الكبار يخبرونك عن رحلاتهم الأسبوعية إلى دمشق وبيروت والقاهرة. تأخذ القطار من حيفا، يمر القطار في العريش ويوصلك إلى القاهرة. تأخذ سيارة أجرة من عكا، وبعد أقل من ساعة تكون في ساحة البرج .وتكمل السهرة عند ضفة بردى الذي تصورته في حجم الفرح. تسألهم: هل كانت بيروت والقاهرة ودمشق قريبة إلى هذا الحد. كانت... كانت أقرب. وكانت فلسطين ملتقى الشرق .وفيها غنّى عبد الوهاب وأم كلثوم. لو وقفت على الأهرام وقذفت حجراً على فلسطين لوصل عصفوراً. والآن، ماذا؟ يخرج عصفور

من فلسطين فيبيض سرباً من اللاجئين عند ضواحي دمشق. مزّقونا فتكاثرنا لاجئين. شيء في الداخل وشيء في الخارج. في الخارج – ينمو الأطفال على حليب وكالة الغوث فيتحول في عروقهم إلى دم فلسطيني. وفي الداخل تأكل من قمح مرج بن عامر وتصبح "مواطناً إسرائيلياً"، وتقضي نصف عمرك لكي تجد اعترافاً واحداً بأنك "مواطن فلسطيني" فلا تجد. ويوم هبط أول إنسان على سطح القمر كنت مشغولاً بكتابة رسائل عاطفية إلى البوليس الإسرائيلي ليأذن لك بالسفر إلى قرية أهلك! في الخارج يحسدونك لأنك في وطنك وهم لاجئون. تخبرهم أن منظر الماء لا يروي الظامئ بل يدْميه. لا يفصلك عن أرضك الآن إلّا شارع لو قطعته لاعتقلت، واتهمت بالتسلل والاعتداء على أملاك الدولة. قف على رصيف الشارع وتحول إلى شجرة يابسة .وبينك وبين الموت حافة سكين. وحين تراهم يحرثون أرضك ينزل المحراث في كبدك، وحين تصرخ من الغيظ والألم يتهمونك بالعداء للسامية! هذا هو الشعر، والنهر بعيد. تؤثر الشعر على عبور النهر. فيحاسبك النقاد المترفون على اعترافات لم تعلنها ولم تخترها ولا شأن لك بها. الرفض العلني معناه النفي العلني. هكذا تصبح المعادلة مميتة: أن أرفض أعدائي، بهذا الشكل، معناه أن أرفض وجودي. تحايل على الصيغة لكي تحتفظ ببقائك .وهكذا تفضل الشعر على عبور النهر. فيتهمك النقاد المترفون بالخيانة القومية .ويتهمكأعداؤك بالعداء للسامية.

قف على رصيف الشارع، وتحول إلى شجرة يابسة .وحين تراهم يروون أرضك بالماء تنهمر الأفراح التي يبعثها المطر. المهم ألّا تعطش الأرض. ولو متّ أنت من الظمأ. هكذا كان يفعل جدك. قضى بقية حياته واقفاً على رصيف الشارع في محاذاة حافة السكين. وبين تحوله إلى شجرة يابسة وبين فرحه بالمطر ونزول المحراث في كبده توقف قلبه ومات. رثاه أخوك الذي يحب الكتابة ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. كنتم تدفنون الشجرة اليابسة – جدك في قبر ما تمناه. الأحياء محرومون من بيوتهم وأضهم. والموتى محرومون من قبورهم.

وما عدت تخرج إلى شوارع المدينة في تلك الأيام. تجلس في الغرفة وتنفض الغبار عن أسماء مدنك. اكتشفت فلسطين اسمها، وعاودك الحب.

ابتدأ كل شيء.

وانتهى كل شيء.

وبين البداية والنهاية خانك الفرح الذي كنت تحذره دائما. كل شيء يتحول من حجارة إلى أفكار. كنت في المخبأ معلقا على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان .ليسكت الوطن قليلا. لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها. يأخذك الزلزال ويطرحك أرضا، عادوا إلى أورشليم: الجنرال، والكاهن، والزانية. "لن نخرج من هنا إلى الأبد". نفخوا في الصور وصلوا ودقّوا رؤوسهم بحجارة الحائط القديم، حتى سالت دماؤهم. لا حرب بلا دماء، ولم يخسروا دما كثيرا في الحرب، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعا وتبرعا لحجارة الهيكل. تسمع أصواتهم عبر الراديو. لقد وصلوا إلى الرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها. العنف مرة أخرى. العنف يعلن جدارته. وبدعاوي الحق لا تأخذ شيئا ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء. أنت لا تبكي، عادة، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع. توقظك صلواتهم، ترفع ستار نافذة المخبأ، بعد يومين، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب... لم ترَ ناساً، قبل اليوم، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة. دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء كثيرة. لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان كما يعلنون أفراحهم الآن. لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبد الناصر إلى الوقوف. كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود .وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهباً للتحرير. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: "أيها الأخوة المواطنون" ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يعتقلون لأنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو. وكثيراً ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويقبلونه في نشوة وطنية وإنسانية لا توصف. والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطاً بعودة عبد الناصر. وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصاراً، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.

تترك أوراق الجريدة في المخبأ .ماذا كتبت؟ كنت تغطي أخبار المعارك وتكتب الجريدة، وتبوبها، وتصحح بروفاتها، لأن زملاءك في هيئة التحرير قد اعتقلوا. دخلت مجموعة من البوليس في ساعة مبكرة من صباح ذلك الإثنين وتلوا اسم زميل. وضعوا في يديه في الحديد، وساقوه، على مرأى من الناس، إلى سيارة الشرطة. ثم عادوا وتلوا اسماً آخر، حتى لم يبق غير رئيس التحرير وغيرك في المكتب. والجريدة تصدر غداً في موعدها. المهم أن تصدر الجريدة لتحمل لوناً من الأمل إلى قرنائك الذين لا يحميهم من الحرب النفسية سواكم؟.. التفت إليك رئيس التحرير وقال: خذ أوراقك واذهب إلى أي مكان. الآن دورك! وذهبت إلى أي مكان لتواصل كتابة الجريدة. وعلمت فيما بعد، أن زملاءك قادتهم الشرطة في شكل أسرى إلى ساحة المدينة، على مرأى من الإسرائيليين، الذين رأوا الفوج الأول من أسرى الحرب. من قرر عملية الاعتقال الداخلية؟ في الرابع من حزيران/ يونيو وقّع قائد الجيش على لائحة المرشحين للاعتقال. كل شيء منظم. وفي المخبأ لم تعرف شيئاً عن الحقيقة: العرب يعلنون عن تغلغلهم في فلسطين. والإسرائيليون لا يقولون شيئاً. تسمع الذعر المنتشر خارج المنزل. وتسمع عن هيجان البوليس في القرى العربية المنتظرة... الضرب والتعذيب والسباب. ولكن الناس تعد عمر سلاسلها باللحظات. هذه رقصة البجعة. وتسمع عن احتراق مصافي البترول منذ ساعات، وتسجل الخبر. وتفطن، بعد قليل، إلى أن مخبأك مطل على الميناء، تسترق النظر عبر ستارة النافذة، فلا تجد حريقا في مصافي البترول. الحريق في القلب. ثم، يأتيك نبأ من البرلمان الإسرائيلي، في أول ساعات المعركة، بأن الوزراء الإسرائيليين يشربون الأنخاب. حمقى... يشربون الأنخاب! كيف. يقولون إنهم قضوا على أسطورة جيش عبد الناصر. وفي منتصف الليل، يأتي قائد الجيش إلى الإذاعة ليعلن حصاد المعارك: تحطمت الطائرات عند الفجر. والقوات الإسرائيلية تقاتل عند مدخل رفح!!

وتعود من رحلة الأمل السريع، إلى حيفا. تعود إلى الحقيقة. من يعطيك الحقيقة؟ العدو؟ لقد وعدوني أهلي بالوصول، فانتظرت. ذهبوا من أماكنهم، فانتظرت الأمل. أخذتني إلى انسانيتي، وتركتني في منتصف الطريق. أيها العرب! لماذا تكذبون عليَّ. لم تكتب هذه الخواطر في الجريدة؟ كتبت أشياء أخرى. حتى عبد الناصر يذهب، الآن، ويتركني. بلا وطن، وبلا عبد الناصر أيضاً؟!

هكذا ابتدأ كل شي.

وهكذا، انتهى كل شيء.

-أين كنت؟

*هنا في البيت.

-لماذا لم تفتح الباب منذ ستة أيام؟

*لأني لا استقبل الزوار أيام الحرب.

-ولماذا فتحت الآن؟

*لأن السجن أفضل من البيت. ولأني ألغيت كل مواعيدي. جاهز للاعتقال... جاهز. خذوني!

كانوا ضباطاً، وشاويشا، وبوليسا.

حين كنت تهبط الدرج إلى سيارة الشرطة، وكنت تودع البيت وعيون الجيران خلف النوافذ، لم تشعر أنك تودع الحرية. كنت تعتقد دائماً أن سيارة الشرطة تأخذك إلى حريتك الحقيقية. تحب تسمية الأشياء بأسمائها وهذا هو الاسم الحقيقي للسجن. في السجن لا تقول: انتهى كل شيء. في السجن تقول: ابتدأ كل شيء والبداية هي الحرية.

ابتدأ كل شيء...

زملاؤك يندفعون إليك، في السجن، ليعتصروا منك خبراً آخر. كانوا منقطعين عن الأخبار إلّا ما يذيعه العدو. ولا يصدقون شيئاً، ويريدون منك خبراً واحداً. وليس عندك شيء. أيها الأصدقاء! يؤسفني أن أقول إن ما بلغكم هو الحقيقة! يغضب بعضهم وتتهمك عيناه باليأس وينصرف عنك. والسجن جميل، دائماً تنتظر شيئاً. وتشغل نفسك بمتطلبات صغيرة. وساعة في اليوم، ترى السماء التي تعيد إليك صداقتك المهزوزة مع الحياة. إن قطعة واحدة من الزرقة تبهج قلبك، ويوم ستلتهم الأرض كلها. وفي السجن، صرنا كلنا خبراء في المسألة العسكرية. ووجدنا سبباً واحداً للهزيمة: الخيانة. ومن كان يجرؤ منا على الشك بهذا السبب كان يتهم بالانحراف.

ولكن، كيف يبدأ كل شيء، وفي أي اتجاه: إما أن يتعمق إحساسك بأنك" مواطن عربي في إسرائيل" وإما أن يتعمق رفضك لهذا الانتماء الذي لا خيار لك فيه .الحالة الأولى تكون رد فعل على خيبة الأمل التي ألحقها بك العرب، وتعزيزاً لاستمرارك في العمل السياسي المتواضع الذي تمارسه ضمن دائرة الممكن وفي إطار القانون الإسرائيلي 'كل شيء يبدأ من الداخل، من المطالب الديموقراطية القائمة على الاعتراف بالأمر الواقع". والحالة الثانية تكون رد فعل على العنف الإسرائيلي لاستمرارك بممارسة انتماءك الحقيقية كما تختارها أنت " كل شيء يبدأ من الخارج، بدون هزيمة عسكرية تلحق بإسرائيل، لا يمكن أن تحدث تغيرات جوهرية داخل المجتمع الإسرائيلي."

ثمة فارق بين الحالتين، ولكن لا تناقض عميق في ما يترتب عنهما في مثل ظروفك الراهنة من ممارسات ما دمت موجوداً في الداخل والخارج معاً.

لقد هزم العامل الخارجي حقاً، ولكن انتماءك إليه لم يهزم. لأن هذا الانتماء ليس وجهة نظر وليس رأياً قابلاً للمناقشة. إنه حقيقة تاريخية. وتشعر بصدمة تناقض معنوي مباغتة. إن أقصى ما تستطيع ممارسته من كفاح، ضمن دائرة الداخل، يقتضي منك الانطواء تحت راية "الوطنية الإسرائيلية" التي تتناقض مع انتمائك القومي الذي هو حقيقة تاريخية. ومن هنا، بدأت تهتز بعنف وصرت تنشق. لا يعوزك البحث عن عزاء. ليس العزاء قضية. تستطيع القول مثلاً: إني لم أختر ظروفي. وتستطيع القول مثلاً: هذا التناقض قائم، ولكنه ليس قضية السياسية المطروحة الآن. سينفجر التناقض ذات يوم. وإن هذا الانتظار يشكل عقدة نفسية. ومسألة تحقيق الانسجام مع النفس شرط بعيد المنال.

ولكنك تترك السؤال معلقاً. والشعر هو لغتك. واللغة الشعرية تتلافى مواجهة السؤال القاتل.

الشعر يقول ولا يقول. الشعر يقول الحقيقة ولا يعلنها. هذا وطنك، والردعلى الغزاة – مزيد من الحب لهذا الوطن. لأن أي وهن في العلاقة بينكما منفذ للغزاة. يضعون فلسطين في جيوب بزّاتهم العسكرية. وتبقى فلسطين وطنك.. خارطة، أو مذبحة، أو أرضاً، أو فكرة. إنها وطنك. ولن يقنعك الخنجر بأنها لهم. إن التحدي وهذا السجن يحميانك من إعادة النظر. شكراً للسجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة. شكراً للقيد الذي يذكِّر زنديَّ بأنهما محرومان من معانقة الشجر. وتكتب إلى حبيبتك الوهمية: "أتمنى لك اليأس، يا حبيبتي، لكي تصيري مبدعة. اليائسون هم المبدعون. لا تنتظريني، ولا تنتظري أحداً. انتظري الفكرة لا تنتظري المفكر. انتظري القصيدة ولا تنتظري الشاعر. انتظري الثورة ولا تنتظري الثائر. المفكر يخطئ. والشاعر يكذب، والثائر يتعب. وهذا هو اليأس الذي أعنيه."

لم تعانق ظلالاً لتندم.

والفرح الذي فاجأك هو الحالة الطارئة. كانت خيانة قاسية. لا بأس .تواصل حياتك وعملك وتمزقك وتناقضك. وقبل كل شيء تواصل رفضك. لن تقول نعم لشيء. لقد خرجت من الفرح بهزيمة، وخرجت من الهزيمة برفض جديد ليس للعدو وحده. هل صار وطنك فكرة؟ التصق بالفكرة. والطريق من حيفا إلى تل أبيب هو المعجزة الجمالية الحقيقية .البحر الأبيض المتوسط على يمينك، وسلاسل الجبال على يسارك، وسلاسل الحديد حول زنديك. والوطن، أجمل ما يكون عبر الأسلاك.

وفي المحكمة يتحقق التكافؤ بين القانون والمدفع. لن يقف القانون معك، ما دام مدفعك ساقطاً؟ والقتلة دائماً يتحدثون عن الأخلاق بأشكال مختلفة. يأتيك جنود "ليندموا" على عمليات القتل والتخلص من الأسرى ويقولون "لا مفر". وتأتيك صديقة قديمة بحفنة لوز من الضفة الغربية. ما عادوا يشعرون بالخوف – ما عادوا يهود. وفي عكا، ترى أسرى مصريين، يسقط قلبك. جاءوا يحررونك فوقعوا في الأسر. ويأتي العرب الذي كنت تنتظرهم. اللاجئون يعودون.. يعودون سياحاً وأسرى. تخفت الأناشيد العربية، وتعلو الأناشيد العبرية. والإسرائيلي يتحول إلى أسطورة. وفلسطين والجولان. لم يلتقوا في الحرية، والتقوا في الأسر. وفلسطين تنام على ضفاف الأنهار البعيدة، لا تستحم بالماء ولكنها تستحم بالدم القادم. هل تكون ولادة جديدة؟ هكذا يجب أن تكون. لا بد من ولادة. هل يصقلنا الموت؟ هكذا يجب أن يكون. لا بد أن يصقلنا الفرح. ستبدأ المقاومة. ستبدأ المقاومة. انتهى كل شيء. وتبدأ المقاومة. وإذا جاءك الفرح، مرة أخرى، فلا تذكر خيانته السابقة.

ادخل الفرح.. وانفجر !

تقاسيم على سورة القدس

اليوم علقت على خشبة.. من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب الساعة تصبح القدس زمانا، والمكان هو عيوننا. كل شيء خارجنا_ المدن، الدموع، المساء الذي لا ينتهي. وفي داخلنا تستقر المدافع المضادة للطائرات ولحنين الانبياء.

لقد سمينا القدس كل الأسماء التي لا تلائمها. وأعلنّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت .لم يخرج منا "ارميا "واحدا يتجول في شوارعها وفي عيوبنا.. يلعننا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة فلن نصل إلى الصواب.

واذا لم تبلغنا المراثي فلن نذوق النعمى .

لتسكت.. لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس.

ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد. فليس لنا فيها حائط. والقدس عاصمة الخيام البعيدة ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين.

لتسكت..لتسكت دموع اليوم حتى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفا من الشجاعة.

حدث مرة واحدة في حياتي أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون

الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أن تحولت صخرة إلى جندي.

حدث ذلك في القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي.

ومنذ الآن.. هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة ونبيلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علّمني هذا الصمت؟ ومن علّم القدس مرافقة هذا المساء الذي لاينتهي؟

من علّمني كل هذه الشجاعة؟ ومن علّم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى الغمد، كلّا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب ..هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

لم يكن لقاء. ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعظم – هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس.

تهجم على باعة الصحف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة.. تهجم عليهم في نشوة الانتحار. تأخذ أشيائهم، وتصيح تصيح بأعلى صمت: من يشتري صدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة؟! ثم تبتسم للغزاة.

ينحني ظهرك. كقوس عربية أيام كان العرب فرساناً وأيام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة! تتردد.

ليت ظهرك معدن كي لا ينكسر .

وليت صمتك معدن كي يصدر صوتاً أو رنيناً.

ثم يأخذك الحلم إلى مدخل المدينة: من يشتري تاريخك بلحظة انتصار من أجل الزينة.. من أجل الزينة. وأنت أمير المؤمنين بأن الجهاد حق، والموت حق.

لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أنا بائع الصحف في كل زمان ولغة ..وأصحاب القدس يبيعونني ويستقبلون الفاتحين ويتكلمون في الحضارة وعلم الأجناس. لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أعطوني صحفا أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.

]هكذا قال بائع الصحف[

-لا تطلّ نوافذها على شيء.

مفتوحة، تأتيها الهضاب التي لا تحصى أيام الحرب. أيام الحرب لا يحصى إلّا الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كتبوا عليها "يا أورشليم من ذهب."

وعلى مرمى حلم صغير، رأيتني خارجا من زنزانة الكرمل التي حجبت عني شكل الحرب. هل رآني أحد وأنا في القدس لكي أعتذر له؟ لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلّ على شيء يعنيني .

أوقفتني جندية صغيرة. و سألتني عن قنبلتي و صلاتي.اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب و لا أصلي.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حرب. و على ذراعي اليسرى آثار رب، لكنني لا أحارب و لا أصلي.

قالت الجندية : وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة و الصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها.. ماذا تفعل بك لو ربحت؟

قلت: أشتري لوناً لعيني حبيبتي.

حسبتني الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.

و تساءلت :لماذا جئت إلى القدس إذن؟

]المتكلم – محمود درويش [

-كنز من الصخر، والهزيمة، والشجر النادر..

لو كانت مدينتي الآن معي لتنازلت عن حنجرتي، وشربت الماء المثلج من جدول يسكن جبلاً.

لو كانت مدينتي الآن معي لاعتذرت عن كل مواعيدي، حتى مواعيد الموت التي حددتها وكنت أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكثيرة، والهزيمة الموحية.

في البدء لم يكن الفعل، ولم تكن الكلمة. في البدء كانت ..الهزيمة.

لو كانت مدينتي الآن في حقائبي لرحلت. من رآني خاصمني وقتلني لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يولد حتى الآن. والمساء دائما بطيء وبرتقالي.

لوحة من الصخر معلقة على سبع تلال، وثلاثة آلاف سنة، وخمسين نبيا. وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمس قرارات من الأمم المتحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتد إليها ولا تصل..

وصلتُ، يوماً، قبل يدي فترنحت على أحد الأرقام. لم أمسك بشيء لأني قد وصلت قبل يدي. وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دما، وعيونا، وتواريخ، وأحذية، ومراثي، وعروشا، ومسامير، وأشعاراً.. تنهمر الأرقام وتقتلني لتزيد التقلى والعشاق وأسماء القدس .والمساء دائما بطيء وبرتقالي. ويا أيها السادة – كنت أكذب عليكم. ليست القدس هذه المدينة. هذه المدينة ليست القدس.

]هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة.[

صمت من أجل غزة

تحيط خاصرتها بالألغام.. وتنفجر. لا هو موت، ولا هو انتحار.

إنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة.

منذ أربع سنوات ,ولحم غزة يتطاير شظايا قذائف.

لا هو سحر, ولا هو أعجوبة.

إنه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها, وفي استنزاف العدو.

ومنذ أربع سنوات, والعدو مبتهج بأحلامه, مفتون بمغازلة الزمن.. إلّا في غزة. لأن غزة بعيدة عن أقاربها ولصيقة بالأعداء, لأن غزة جزيرة. كلما انفجرت_ وهي لا تكف عن الانفجار _ خدشت وجه العدو ,وكسرت أحلامه, وصدته عن الرضا بالزمن. لأن الزمن في غزة شيء آخر.. لأن الزمن في غزة ليس عنصراً محايداً. إنه لا يدفع الناس إلى برودة التأمل, ولكنه يدفعهم إلى الانفجار والارتطام بالحقيقة. الزمن هناك لا يأخذ الأطفال تواً من الطفولة الى الشيخوخة, ولكنه يجعلهم رجالاً في أول لقاءٍ مع العدو. ليس الزمن في غزة استرخاء ,ولكنه اقتحام الظهيرة المشتعلة. لأن القيم في غزة تختلف.. تختلف.. تختلف.. تختلف.. القيمة الوحيدة للإنسان المحتل هي مدى قدرته على مقاومة الاحتلال. هذه هي المنافسة الوحيدة هناك. وغزة أدمنت معرفة هذه القيمة النبيلة القاسية. لم تتعلمها من الكتب ولا من الدورات الدراسية العاجلة ولا من أبواق الدعاية العالية الصوت ولا من الأناشيد. لقد تعلمتها بالتجربة وحدها وبالعمل الذي لا يكون من أجل الإعلان والصورة.

إن غزة لا تتباهى بأسلحتها وثوريتها وميزانيتها. إنها تقدم لحمها المر وتتصرف بإرادتها. وتسكب دمها.

وغزة لا تتقن الخطابة. ليس لغزة حنجرة... مسام جلدها هي التي تتكلم عرقاً ودماً وحرائق.

من هنا, يكرهها العدو حتى القتل. ويخافها حتى الجريمة.. ويسعى إلى إغراقها في البحر أو في الصحراء أو في الدم.

من هنا, يحبها أقاربها وأصدقاؤها على استحياء يصل إلى الغيرة والخوف أحياناً. لأن غزة هي الدرس الوحشي والنموذج المشرق للأعداء والأصدقاء على السواء.

ليست غزة أجمل المدن..

ليس شاطئها أشد زرقة من شواطئ المدن العربية الأخرى..

وليس برتقالها أجمل برتقال على حوض البحر الأبيض.

وليست غزة أغنى المدن..

)سمك وبرتقال ورمال وخيام تخذلها الريح. وبضائع مهربة ,وسواعد تباع للشاري.(

وليست أرقى المدن. وليست أكبر المدن. ولكنها تعادل تاريخ أمة .لأنها أشد قبحاً في عيون الأعداء, وفقراً وبؤساً وشراسة.. لأنها أشدنا قدرة على تعكير مزاج العدو وراحته. لأنها كابوسه. لأنها برتقال ملغوم وأطفال بدون طفولة ,وشيوخ بلا شيخوخة، ونساء بلا رغبات. لأنها كذلك _ فهي أجملنا وأصفانا وأغنانا وأكثرنا جدارة بالحب.

نظلمها حين نبحث عن أشعارها. فلا نشوهن جمال غزة. أجمل ما فيها أنها خالية من الشعر، في وقت حاولنا أن ننتصر على العدو بالقصائد.. فصدقنا أنفسنا, وابتهجنا حين رأينا العدو يتركنا نغني.. وتركناه ينتصر. ثم جففنا القصائد عن شفاهنا, فرأينا العدو وقد أتم بناء المدن والحصون والشوارع.

ونظلم غزة حين نحولها إلى أسطورة, لأننا سنكرهها حين نكتشف أنها ليست أكثر من مدينة فقيرة صغيرة تقاوم. وحين نتساءل: ما الذي جعلها أسطورة؟ سنحطم كل مرايانا ونبكي لو كانت فينا كرامة. أو نلعنها لو رفضنا أن نثور على أنفسنا.

ونظلم غزة لو مجّدناها .لان الافتتان بها سيأخذنا إلى حد انتظارها. وغزة لا تجيء إلينا. غزة لا تحررنا. ليس لغزة خيول ولا طائرات ولا عصي سحرية ولا مكاتب في العواصم. إن غزة تحرر نفسها من صفاتنا ولغتنا ومن غزاتها في وقت واحد. وحين نلتقي بها – ذات حلم– ربما لن تعرفنا .لأن غزة من مواليد النار ونحن من مواليد الانتظار والبكاء على الديار.

صحيح أن لغزة ظروفاً خاصة وتقاليد ثورية خاصة.

)نقول ذلك لا لنحلل, وإنما لنتحلل.(

ولكن سرها ليس لغزاً: مقاومتها شعبية متلاحمة تعرف ماذا تريد (تريد طرد العدو من ثيابها), وعلاقة المقاومة فيها بالجماهير هي علاقة الجلد بالعظم, وليس علاقة المدرس بالطلبة.

لم تتحول المقاومة في غزة إلى وظيفة.

ولم تتحول المقاومة في غزة إلى مؤسسة.

لم تقبل وصاية أحد, ولم تعلق مصيرها على توقيع أحد أو بصمة أحد.

ولا يهمها كثيراً أن نعرف اسمها وصورتها وفصاحتها لم تصدق أنها مادة إعلامية وأنها فوتوجنيك. لم تتأهب لعدسات التصوير. ولم تضع معجون الإبتسام على وجهها.

لا هي تريد.. ولا نحن نريد.

ولم يتحول جرح غزة إلى منبر للخطابة. من جمال غزة أننا لا نتحدث عنها كثيرا، ولا نعطر دخان أحلامها بعبير أغانينا النسائي.

من هنا – تكون غزة تجارة خاسرة للسماسرة. ومن هنا - تكون كنزاً معنويا وأخلاقيا لا يقدر لكل العرب.

ومن جمال غزة. أن أصواتنا لا تصل إليها. لا شيء يشغلها. لا شيء يدير قبضتها عن وجه العدو. لا شكل الحكم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر. أو على الجانب الغربي من المريخ حين يتم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعد في المجلس الوطني. لا شيء يشغلها. إنها منكبة على الرفض.. الجوع والرفض. العطش والرفض. التشرد والرفض .التعذيب والرفض. الحصار والرفض. والموت والرفض.

قد ينتصر الأعداء على غزة) .قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة.(

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها.

قد يزرعون الدبابات في أحشاء أطفالها ونسائها. وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزاة: نعم.

وستستمر في الانفجار.

لا هو موت. ولا هو انتحار .ولكنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة..

ذاهبٌ إلى العالم
غريبٌ عن العالم

في ساعةٍ متأخرة من الليل, يذهب العالم إلى غرفة النوم.

لقد كان يومه حافلاً. وكان الصفاء يغمر الأرض: ما زالت أدوات الحضارة الغربية تصارع الإرادة البشرية في آسيا. التراب الآسيوي يموت. والإنسان الآسيوي يموت. ومياه الأنهار تجرف من فاتهم أن يلتقوا بأدوات الحضارة. وقريباً من البحر الأبيض, مازالت الأحذية العسكرية, الغريبة الصنع, تدوس الحضارة القديمة والإنسان الجديد.. وفي نشرات الأخبار العادية, العادية جداً, يباد حقل من الأطفال, لأنهم عرب ولأنهم قادرون على النمو.

وفي ساعة متأخرة من النهار, ينهض العالم من غرفة النوم إلى غرفة العمليات. لقد كانت ليلته صافية, وأحلامه متواصلة السعادة.

هكذا ينام العالم..

هكذا يستيقظ العالم..

وهكذا ينساني.

لا يذكرني إلا في حالتين: حين أجرب الموت, وحين أجرب الحياة, ولقد متُّ لمدة ربع قرن وشبعتُ موتاً.

واليوم, اليوم لم يذهب العالم إلى غرفة النوم. وقف على حافة الكرة الأرضية, وأمرني بالخروج من دائرة الانسانية, لأنني حاولت أن أخترق الدائرة, حاولت الدخول.

_ماذا يعنيك من تاريخي أيها العالم...ماذا يعنيك؟

*التاريخ هو الماضي، وأنا أدرسه في المعاهد.

_وأين رأيتني أول مرة؟

*كنت أراك دائماً على تراب فلسطين حتى خرجت، وعاد الصفاء والسلام إلى الأرض. فلماذا تعود الآن؟

_لماذا تكسر الصفاء؟

هكذا يفهمني العالم، وهكذا يريدني. لقد انتهى صراعنا ما دمت قد خرجت من فلسطين، وما عاد للنار حارس. واكتملت معادلة سلام العالم، وصار الأمن الدولي مشروطاً بغيابي عن فلسطين وعن الإنسانية.

لم أودع أحداً ولم أودع شيئاً .دحرجني كعب بندقية من الكرمل إلى الميناء، وكنت أتشبث بخاصرة الله وأصرخ، حتى ضاع صوتي ووعيي. ولكن العالم وعدني بصدقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس، لأن الهدنة مع القاتل لا تتم إلّا بهدنة مع النفس. ولقد تصدق العالم علي: أعطاني طحيناً وثياباً وخياماً كثيرة لي ولأطفالي الذين لم يولدوا مقابل أن أعطيه الوطن والأمن . وحين كنت أشعر بالبرد في المنافي، كانت صحف الرأي العام العالمي تقيني من الأمطار والارتجاف. وحين كنت أشعر بالجوع، كانت فقرة من ثلاثة أسطر في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعني. وحين كنت أشعر بالحنين، كانت الأغاني الأجنبية، المنبثقة من راديو الجيران، تجعل الرحيل تجربة جميلة.

وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم ..وينساني.

_لا توقظوا الضحية. لئلا تصرخ.

_من أيقظها.. من المسؤول؟

*ريح تهب فجأة، فتنعش الموتى.

_من أين تهب؟

*من كل الجهات... من الوطن.

_ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة؟

*شعراء يغنون على ربابة.

_اقتلوهم؟

*قتلناهم، فابتكروا لفظة أخرى - الحرية.

_من علمهم هذه اللفظة العاصية؟

*ثوار حماسيون.

_اقتلوهم؟

*قتلناهم. فتعلموا كلمة أخرى - العدالة.

_من علمهم هذه اللفظة؟

*الظلم...هل نقتل الظلم؟

_إذا قضيتم على الظلم. قضيتم على أنفسكم.

*ما العمل؟

_نقتل الذاكرة.

وهكذا ينام العالم. وهكذا يصحو. هو مدجج بالسلاح وأنا مدجج بالقيود. القوي متحضر. والضعيف بربري. وليس التاريخ قاضيا .التاريخ موظف. ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم. والذين يتباهون بالحضارة والتقدم هم غالبا ما يكونون القتلة.. القتلة.انظروا إلى هذا الثلاثي :الأول – أباد شعبا من الماضي. ويبيد اليوم شعبا وتربة في جنوب شرق آسيا. ويفجر علامة تحضره الكبرى – القنبلة الذرية – في شوارع العالم.. يطالبني بالخروج من حلبة الإنسانية ومن الكرة الأرضية لأنني إرهابي. والثاني – ليس من الحكمة أن نذكره بماضيه. لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن، والآن يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليدا جديدا هو الثالث – فماذا ينتج عن زواج الإرهاب إلا الإرهاب! وجاء الثالث المدجج بالتوراة والسلاح. واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة إلى الحضيض. هذا الثلاثي يطالبني بالخروج من الكرة الأرضية لأنني إرهابي.

وماذا كان العالم يفعل؟

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب إلى غرفة النوم وينام.

القتل دائما جريمة. فلماذا يتحول القتل إلى دعامة من دعائم الهيكل الحضاري.

إذا مارسه الأقوياء؟ وهل نشأت إسرائيل على وسيلة أخرى غير القتل والإرهاب – شديد الإعجاب بالقتل الجماعي. وشديد التنديد بالقتل الفردي. من حق الدول أن تقتل شعوبها والشعوب الأخرى. وليس من حق فرد أو شعب أن يقاتل من أجل حريته.

ومن هو هذا الرأي العام العالمي؟

نحن نستخدم هذا المصطلح مجازاً. فنطلب العدالة من القتلة إذا كان معنى المصطلح هو تلك الأجهزة الإعلامية التي يديرها أفراد متشابكون في المصالح والعقائد. فلماذا نعطيه مثل هذه القداسة؟ إن الرأي العام _ الضمير الإنساني _ لا نراه ولا نسمع صوته. لأن مؤسسة "الضمير العام العالمي" الغربية الرسمية قد خنقته وزيفته. وإذا كان سلوكنا خاضعا لمتطلبات كسب "الرأي العام العالمي" المعبر عنه بالأجهزة الإعلامية الرسمية. فقد آن لنا أن نكتشف أننا نستمرئ عبوديتنا وضياعنا ونبحث لها عن أسباب البقاء. طالما أن هذا "الرأي العام" ملك أفراد فهل يصلح هؤلاء لأن يكونوا قضاة! حين نتحاشى الانتحار يقولون إننا جبناء. وحين ننتحر يقولون برابرة. وحين ندعوا إلى السلام يقولون إننا كذبة مراؤون .وحين ندعوا إلى المعركة يقولون إننا متوحشون.

هل نحن قتلة؟ من قتل من؟ هل سألوا هذا السؤال؟

ليس صحيحاً أن العالم قد فقد ذاكرته. وليس صحيحا أيضا أننا قادرون على إعادة الذاكرة إلى العالم عن طريق إرضائه. العالم يرتاح. العالم يريد أن يلعب ويريد أن يشرب.

_لماذا توقظ العالم من النوم؟

*هذا ليس صوتي. هذا صوت ارتطام جثتي بالأرض.

_ولماذا لا تموت بهدوء؟

*لأن الموت الهادئ حياة ذليلة.

_والموت الصارخ؟

*قضية.

_هل جئت تعلن حضورك؟

*بل جئت أعلن غيابي.

_ولماذا تقتل؟

*لا أقتل إلّا القتل. لا أقتل إلّا الجريمة.

_اذهب إلى الجحيم.

*أنا قادم من الجحيم.

للمرة الأولى، سأل العالم نفسه: من أخبره أنه قنبلة؟

_من كثرة ما ضربوه بالرصاص. تراكمت الشظايا على الشظايا ,فولدت طاقة، وصار قابلاً للانفجار.

_أخرجوه من دائرة العالم.

*لقد أخرجناه.. وعاد.

_انصبوا له كميناَ على حافة الأرض. وادفعوه إلى الفراغ.

*لا يمكن الاقتراب منه. لأنه مدجج بربع قرن من المأساة والغضب والانفجار.

_إرهابي؟

*نعم إرهابي وبائس.

ماذا يفعلون باليأس. اليأس صنو الموت. لا أريد من العالم شيئاً إلّا أن يرفع سكينه عن عنقي. لقد كنت رهينة. أنا الرهينة منذ خمس وعشرين سنة في أيديكم. وأطلق اليأس سراحي. من يعيدني إلى الأمل غير إعلان يأسي! ومن يحررني من الأسر غير قدرتي على الانتحار !ليذهب العالم إلى غرفة النوم. أنا صمام أمان العالم _هذا هو الدور الذي حددتموه أنتم لي. وليس بوسعكم أن تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني. ليس بوسعكم أن تحددوا لي طريقة تخلصي من المجزرة المزمنة. ليس لي إلّا أن أموت. فلأمت كما أشاء .لا أرضى بهذا الدور لا أرضى _ فليست عبوديتي معادلة للأمن. سموني ما شئتم. جاء دوري الآن لأسمي نفسي ما

أشاء, وأفعل ما أشاء. أقف في قلب العالم. أنتزع ذراعي. ألوّح بها في الهواء. أحولها إلى كرة وألعب معكم.. أقذفها في شباككم يا قضاة الحضارة .ليس من أجل الوطن. ليس من أجل الشعب. وليس من أجل الانتقام. هكذا يطيب لي _ كحيوان آسيوي_ أن أستخدم جسدي, أن أمرنه على الحركة بعد شلل دام ربع قرن.. أن أقطعه إرباً إرباً وأسليكم. هذه هي حريتي الوحيدة, فلماذا تعترضون على إنتحاري يا خبراء القتل الجماعي. ويا من تحولون الأطفال إلى فحم! أنتم تقتلون.. إذن أنتم تعيشون. وأنا أنتحر.. إذن أنا أعيش. لن أسمح لأحد, بعد الآن, أن يقتلني سواي. هل تعرفونني؟
إن حليب وكالة الغوث لا يخلق دماً في الشرايين. إنه يخلق ديناميت. هذا غذاؤكم يعود إليكم. وحين رمتني أمي في شوارعكم طردتموني وقلتم: عدْ إلى أمك, وحين عدت إلى أمي ألقيتم عليَّ القبض وعذّبتموني وقلتم: إرهابي. ومنذ تلك اللحظة, وأنا أبحث عن أمي .وهل تعرفون أين وجدتها؟ كان جسمي يمطر دماً. وحين أفقت من الغيبوبة وجدت نفسي في بركة دم. حدّقت فرأيت ملامح سميتها وجه أمي. كان ذلك دمي ولم يكن دمكم يا قضاة العالم.

من حوّلني إلى لاجئ, حوّلني إلى قنبلة. أعرف أني سأموت, وأعرف أني أخوض معركة خاسرة اليوم لأنها معركة المستقبل. وأعرف أن فلسطين _ على الخارطة _ بعيدة عني. وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة. أعرف هذا كله. ولهذا أحملها إلى شوارعكم, وبيوتكم, وغرف نومكم.

ذاهب إلى الجملة العربية
في الخامس عشر من أيار

1

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

هذا هو أول الرحيل. وهذا هو آخر الأرض. لكل شئ أوانه إلّا موتك، يأتي مباغتاً ومكرراً وبلا مناسبة كالمطر الاستوائي، فمن أين تلتقط برهة للياقة الاحتفال بذكرى الموت الأول؟ مهزوم من الوريد إلى الوريد وها أنت تعبر بين الصوت والصدى مسيحاً جديداً بلا طقوس. في الجملة العربية متسع لقارة من الخيام أسكن إحداها وأحلم بصيف قليل الحر.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

الوطن ليس صخرة قديمة حتى لو كانت لها حرارة الجسد. ما أشد سذاجتك إذا حاصرت ذاتك ونارك بهذا الحلم البدائي المحدد. الوطن مطلق. فلا تسأل عمن أعطى الأرض هذا الضيق الواسع .من الماء إلى الماء ملايين من القلوب التي تؤويك وتسند ظهرك. اذهب إلى الجملة العربية تجد الذات والوطن وفي الوقت متسع للحرب والسلام.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

وماذا تفعل لو خرجت من هذا الدور؟ هذه الصيرورة صارت تطعمك وتسقيك. يلقون على جراحك النقود والتبرعات، فمن أين تأكل لو التأمت! كل الذين جربوا الحرية قبلك لعنوها حين اكتشفوها وتاقوا إلى أيام البحث عنها. والدولة شرطة وضرائب، فهل تنفق هذا الدم من أجل بوليس وضريبة جديدة؟ مجد المسيح أنه مصلوب في عزّ الدعوة .تصور.. تصور لو ترجل

المسيح ما يحدث في الدنيا! الفوضى والردة. سيتمرد عليه الكهنة والفنانون والفقراء.
سيرغمونه على العودة إلى حراجه حافيا أو بحذاء جديد لكي تستمر حياة الآخرين. اذهب إلى الجملة العربية، واستمتع بهدير التأييد واحلم بسلامة الضاد .مرّ غزاة كثيرون (هل عرفت شعوب أخرى ما عرفنا من الغزاة؟) احتلوا الأرض، وشردوا الناس، ولكنهم ما استطاعوا أن يفترعوا حجاب حرف حلقي واحد!

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

ويا وطني الذي أعرف الطريق إليك ولا أعرفك. من ربع قرن وأنا ذاهب إليك عبر الجملة العربية الرسمية، وغريب عنها وعنك.
أعجبتهم شقائق النعمان، وحاولوا أن يسرقوا بندقيتي، فأطلقت النار على الهواء، فأصبت شقائق النعمان، فاتهموني بمحاولة الانتحار.. وساقوني إلى المحاكمة .فهل أصمت كي أقترب منك، أم أدافع عنك وعني بالجملة العربية ذاتها؟

انتهت حفلة الميلاد، ليس للمدينة المقدسة ذاكرة منتظمة. أمطرت السماء ماء وغزاة. وكان الجندي الجديد يتنزه في حارات التاريخ المفتوحة مع صديقته القديمة ويقول "إذا نسيتك يا حبيبتي تنساني ذراعي". وقد نسي ذراعه في صدرها، فنبهته إلى الخيانه "تحب أورشليم أكثر مني!". ضحكا وتابعا النزهة. كانا يستعيدان ذكريات عن الحرب الأخيرة ويندهشان من إمكانية الحياة بدون القدس، ويروي لها بطولة لم يمارسها.

ابتاعا فلافل من بائع عربي صار يتقن اللغة العبرية بلثغة بولندية.

"اعتادوا علينا. هل تعرفين أن الزمن ضابط في جيش الدفاع الإسرائيلي، يرتقى عاماً بعد عام؟" خلعت حذائها ومشت حافية. "تريدين أن أثبت لك ذلك؟" اشترى صحيفة من بائع عربي يروّج للطبعة الجديدة من صحيفة "المساء" بلغة عبرية سليمة.

"للقهوة العربية مذاق لاذع. كيف تكون حياتنا بدون هؤلاء السكان ..كيف؟ هل تتصورين أن بمقدورنا المحافظة على وحدتنا القومية إذا كنا نعيش وحدنا؟"

دخلا مسجد الصخرة، وتبادلا قبلة على مرأى من الأسطورة "لتشهد الأسطورة على أن شعب إسرائيل حي". شعرا بالندم لأنهما، قبل سبع سنوات، تبادلا قبلة هنا للذكرى بإحساس السائح الذي لن يعود. وها هما يعودان كل سنة. " هذه القبلة ليست للذكرى، بل لاستفزاز الأسطورة."

كانت السماء تمطر. السماء تمطر دائما في أعياد الميلاد. راقه أن يجري مقارنة – على الطبيعة – بين بوله والمطر، فانتحنى زاوية وعاد يحدثها عن فارق طفيف في اللون. "للعرب طباع حميدة أهمها الكرم والنسيان". ردت بلا اكتراث: "لا أحبهم". اكتشف برهاناً جديداً: "لولاهم ما كنت عرفتك وأحببتك. ولكي يستمر حبنا ويثمر لا بد من وجود عرب". تذكرا خلافاتهما القديمة عندما كانا يدرسان في كلية الآداب، ولكن المساء أغراهما بالعناق فقبلها، وتابع" :إنهم جوهر وحدتنا. أنا من وارسو وأنت من بغداد. الذي صنع اليهودي هو التحدي وحاجته على التماسك. فما هو محور تماسكنا. العرب هم تحدينا المشترك، فإذا ذهبوا ذهبت وحدتنا، وانتقل الجندي إلى العلاقة بين القادم من وارسو والقادم من بغداد". ذكّرته بأنه سينام الليلة مبكراً ليبدو قوياً

ونشيطاً في الاستعراض العسكري غداً.

في تلك اللحظة، كان عمال التنظيف يكنسون الشوارع من آثار صلوات الأسبوع الماضي. كان المسيح يتراجع إلى الوراء، وكانت المدينة المقدسة تخون ذاكرتها وتفتح شوارعها لعيد الغزاة الجدد الذين كانوا ينشدون "يا أورشليم من ذهب."

وفي تلك اللحظة أيضاً، كانت تصل إليهم هدية مفاجئة أو بطاقة معايدة :كان دم عربي غزير يسيل في شوارع بيروت، وكان يتحول إلى زيت ينعش الأرز القديم الذي أهدي إلى الملك سليمان بناء الهيكل!

من يوقف التشريد؟

كنا نتساءل قبل أيام: من يوقف الهزيمة؟ والآن نصرخ: من يوقف التشريد.. تشريد هذه المرأة؟

الصورة ذاتها تواجهنا دائما في الصحيفة, وفي ضواحي المدينة, وعلى كل أرض عربية, ونادراً ما تواجهنا في الضمير.

الصورة ذاتها. تأتي بعد الرصاص دائما: أم فلسطينية تجر أطفالا, وتحمل فراشا, وتمشي في الريح والمجهول. تلجأ من ملجأ إلى ملجأ. فمتى تستقر في ملجأ أخير غير القبر؟ كأن الدعوة إلى العودة أرجئت. من ربع قرن ونحن نراها تخطو في العظم (من نحن لنتكلم بهذه الصيغة – مراقبون) تخرج من مخيم في اتجاه خيمة أخرى أو صخرة منحنية. تلاحقها اللعنة والقذيفة والأقدار المكتوبة. سموها ما شئتم ,فهي أمي.

_أقيموا لها خيمة من اسمنت, لكي تكف عن التشرد. دعوها تستقر في لجوء واحد.

_الفراش المحمول على الرأس.. والوطن المحمول في القلب مربوطان بخيط واحد. إذا استراح الفراش ضاع الوطن.

_وهل أصبح اللجوء إعلانا وزينة؟

لا ينتهي الحوار إلّا بتدخل غارة, مرة من الأعداء، ومرة من الأشقاء ,فلا يبقى في الوطن العربي أو (العالم العربي) مكان لا تصل إليه القذائف بحثا عن ظل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكني أعرف أنها أمي.

_لماذا تضربها الطائرات؟

*لكي تخفي ظلها عن الأرض.

_

ولماذا يؤذيكم ظلها؟

*لأنه ثقيل.. ثقيل تنوء به أكتاف هذه اليابسة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

_إنها لا تطلب شيئا إلّا الوجود!

*العدو لا يرضى بهذا.

_وأنتم.. هل يعنيكم رضا العدو.. أم حياة هذه المرأة التي هي دمكم؟

*لا حيلة لنا بمصارعة العدو.

_لا تصارعوه.. دعوها تصارعه وحدها.

*ليس على أرضنا.. لأن العدو لا يرضى بهذا.

صار بوسع العدو أن يمشي أو يتنزه في الشوارع العربية التي لم يعلن عن احتلالها بعد. يشرب القهوة في المطارات أو المقاهي, يسهر في البارات, ويعود بسيارة خاصة أو بسيارة أجره في آخر الليل الى حدود فلسطين. وإذا تعب من السهر نام في فراشنا. ألم يطرد كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار من فراشهم!

غضب العرب من هذه الإهانة, فسارت ملايين في جنازتهم. وبعد أسبوع تبرعت الطائرات العربية – دفاعاً عن سلامة فراش النساء المستوردات – بضرب هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

_لماذا تضربونها؟

*من أجل مصلحتها.. من أجل الدفاع عنها. نحن لا نستطيع أن نحميها من غارات العدو. فنحميها من الحياة التي تسبب لها التشرد وتسبب لنا فتور السياح. خير لها أن تموت برصاص الأشقاء من أن تموت برصاص الأعداء.

على شريط تسجيل، كانت الافتتاحية لصوت العصافير. العاشرة صباحا، وليس للعصافير موقف ولا مصلحة. بعد دقائق انهمرت أصوات الطائرات (فجأة صرنا نحارب (بين الطلعة والأخرى كانت العصافير تكمل زقزقها.

-لماذا؟

*لأنها لا تفهم السياسة.

-ألا تملك غريزة الخوف من الموت؟

*تملك، ولكنها تعرف أن الطائرات لا تصيبها على هذه الشجرة.

-كيف؟

*لعلها جاءت بأجنحة مزوّرة.

صدق! أولا تصدق. لقد سمعتها بأذني. وهذا هو الشريط.

-ماذا سمعت أيضا؟

*إن هونغ كونغ لا تكون أرض ثورة.

-لا أحد يطالب هذا.

-أين جسدك؟

*تحت ثيابي.

-وماهي حدوده؟

*تواريخ: جنوباً – 15 أيار/ مايو 1948. شرقاً – تشرين الثاني/ نوفمبر 1956. غرباً 5 – حزيران/ يونيو 1967. شمالاً – أيلول 1970. هذه هي حدود جسدي.

-تحمل قنابل؟

*لا.

-ماذا تحمل إذن؟

*إنني مدجج بالغضب.

-لماذا تعيش؟

*لأعود إلى وطني.

هذه هي المشكلة. ليس مهماً أن تحمل سلاحاً في الشارع أو في المخيم أو في البيت. ما دمت تحمل هذا الجسد المدجج بالغضب – كما اعترفت – فإنك قابل للانفجار وتوريط العرب. ولا تنس أن هونغ كونغ ليست أرض ثورة. واسمح لي أن أقول لك إنك ما دمت موجوداً هنا فإن فلسطين موجودة هنا. وفلسطين ممنوعة من التداول العلني، لأن العدو يغضب.. يغضب.. يغضب. هل تفهم!

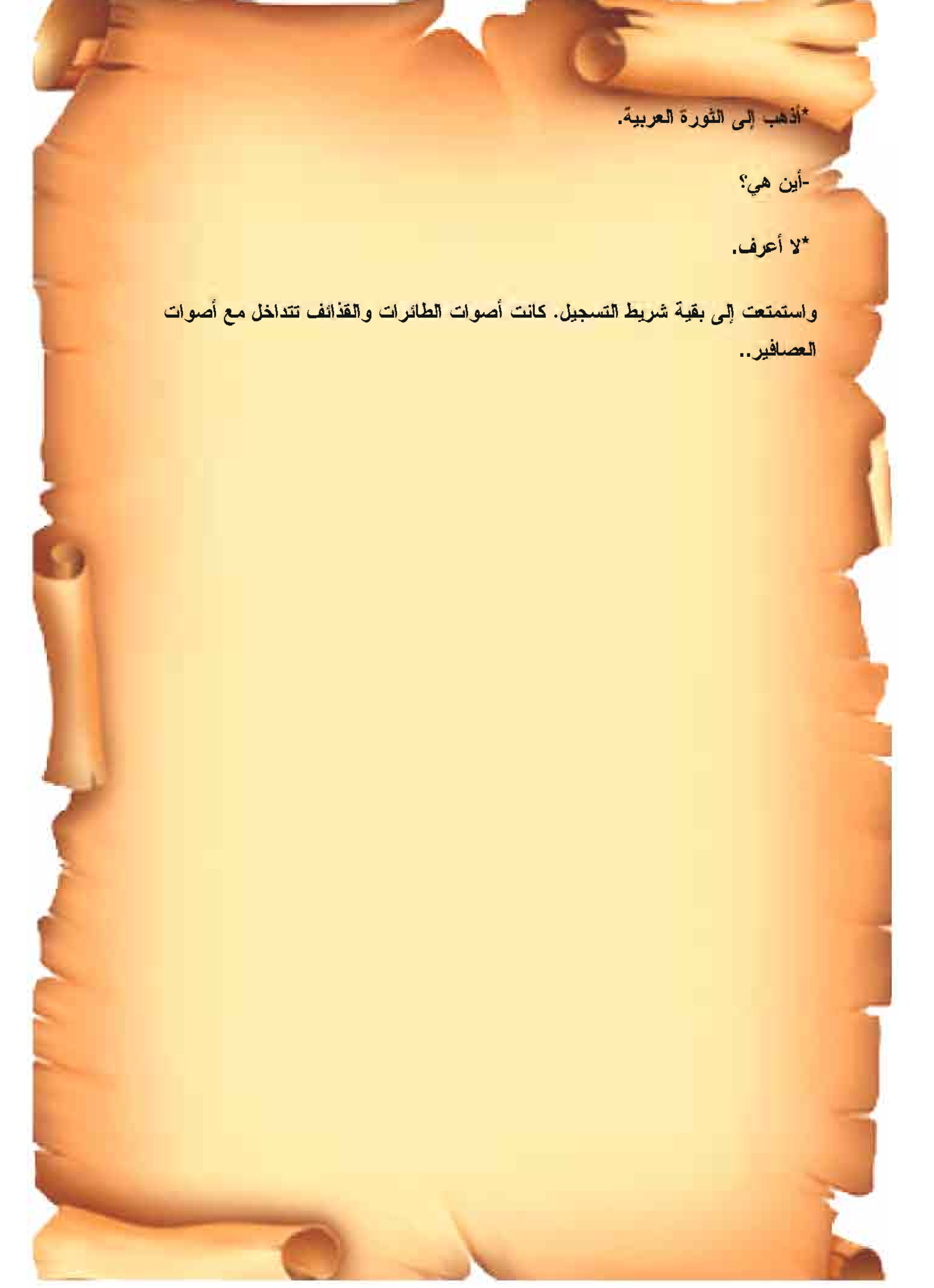
*هذا اختياري وقدري. إذا تحررت من الاختيار فلن أتحرر من القدر.

-اذهب إلى الدول التي تقوم مبررات حكمها وشرعيتها على أولوية التداول بقضية فلسطين. وإلّا، فما عليك إلّا المتاجرة بالملابس الداخلية أو العمل بواباً في شقة مفروشة. لأن العدو يغضب ..يغضب.. وبيتنا من زجاج.

*لقد ولدت هنا. لست لاجئاً. من ربع قرن ولدت هنا .لست لاجئاً. هونغ كونغ ليست أرض الثورة. لست لاجئاً. ولكن لماذا تكون سايغون؟

*لأن العدو يغضب.

-أين يذهب إذن؟



*أذهب إلى الثورة العربية.

-أين هي؟

*لا أعرف.

واستمتعت إلى بقية شريط التسجيل. كانت أصوات الطائرات والقذائف تتداخل مع أصوات العصافير..

وقفت على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط, وقلت: أنا قادم من ذروة السقوط. كانت هذه الأرض شبيهة بثور جريح يسقط من قمة الرجاء إلى قاع الهزيمة المتناسلة, ولكنه كان يرتبط بالكون بقرنه الحاد الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة .طافح بالنفط، والكسل, والشعوب الممنوعة من الممارسة والمجهّزة بنتائج استفتاء جاهزة" نعم."

]خلع الملك ثيابه الملكية, وارتدى بزة ضابط, واحتل الإذاعة, وأعلن الجمهورية. وقال: كان الحكم البائد متآمراً على قضية فلسطين, وقد قامت ثورتنا المجيدة من أجل تحرير فلسطين، وتحقيق الوحدة العربية. صفقوا له. انتقلوا من حالة اليأس إلى حالة اللايأس. وكان الملك يضحك في غرفة النوم سعيداً بنتائج الاستفتاء الشعبي"نعم.["

أغمدت القرن في صدرك, فكنت بين الجسم والجثة شكلاً ثالثاً قابلاً للتسمية المشجعة. فسموك وصدقت اسمك. وما كنت تدرك، جيداً، أنك التوتر الباقي في أعصاب المرحلة المترددة على مفترق الاختيار.

_دمك والنفط, هذا هو الصراع.

كانوا يحتاجون إلى هذه المعادلة من أجل الضغط على المستهلك عبر البحار. فصفقوا لك... وكان لون النفط أقوى من دمك في علاقتهما الأولى.

مادة للانفجار ممنوعة من الانفجار.هذا أنت. لك الأناشيد كلها. وأطنان من الخيام. وحائط الإعلان.

ثوريّ في قبضة ملك. هل تتقن اللعبة؟ وهذه الجماهير التي تمنحك آمالها وخبزها يخبئها الملك _ باسمك _ في عباءته البيضاء.

وهذا الشيء الممتد من الماء إلى الماء, ما اسمه؟ لا هو خارطة, ولا هو وطن. ولكنه جسد ينتظر الزلزال القادم من نبيّ لا شرط لنبوءته إلا أن يسمي الأشياء بأسمائها. ولست البديل ولا المخلّص, ولكنك الإشارة والبدء والقربان. فتحركت أشياء.

دمك والنفط.هذا هو الشعار الباقي بعد سقوط التجارب السابقة والشعارات.

لماذا يزهو دمك إلى هذا الحدّ. ويصبح لونه أقوى من لون النفط؟ يرجوكم المستهلك عبر البحار أن تعيدوا النفط إلى صفائه القديم مقابل وعد بإعادة قطعة أرض. فجاءوا إليك ليعيدوك إلى قبضة الملك في لعبة لا تتقنها. وانتهى دورك لتعود إلى حالتك الأولى: لاجئا وقضية. وقالوا للجماهير هذا عدوك الداخلي الذي يؤلب عليك العدو الخارجي. وأعطوا الأمان للعدو المشترك. لأن المعادلة تغيّرت. والتحم أمن العدو بأمن النظام. تركوا العدو يستريح وقاموا بالدفاع عن أمنه وحدوده التي تشدد قبضتها على رقاب العواصم. الدفاع عن الباب العالي يقتضي الدفاع عن نوم الغزاة وراحتهم.

وكان الطلبة القلقون يتساءلون :ما الفرق بين الغزاة القادمين من الخارج والطالعين من الداخل؟ اختلفوا على فروق كثيرة واتفقوا على فارق واحد هو: أن الغزاة يشردون والطغاة يقتلون من ينجوا من أيدي الغزاة.

وأنت. ما زلت واقفا على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط وتصرخ :أنا قادم من ذروة السقوط. لأحمي قرن الثور الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة التي هي... صدري!

تكبران معا: أنت وأيار.

تكبر كتفاك, وتكبرالصخرة. ويقدم أيار/ مايو أوراق اعتماده إلى الشهر الذي يليه. ويبقى الوضع سجالاً. من الصعب أن يبلغ أيار/ مايو ربع قرن بهذه السهولة, ولا تتغير نتيجة الحرب الصامتة.

هل يمزح التاريخ؟ بعد كل هذه الهزائم... بعد اختلاط هذه الشهور تدور الحرب في شوارعنا ليتسنى للعدو أن يكمل احتفالاته. هل يمزح التاريخ؟ يخرج أيار/ مايو ليدخل حزيران /يونيو, والبنادق العربية تصوب إلى كل الاتجاهات إلّا الاتجاه الصحيح. واذا اشتكى العامل, وإذا غضب الطالب تصبح بنادقنا شجاعة. كل الحرب في الداخل ونغني للصمود. ربع قرن... ربع قرن ونحن نلوك الجملة إياها, وحدود العدو تلاحقنا. مزيد من الخطابات مزيد من الهزائم, وأنت الشذوذ عن القاعدة.

_أيها الفلسطيني التائه! ضع حداً لهذه الفوضى.

لم تسمع فساقوك إلى مجزرة في شهر آخر أو في عيد ميلاد موتك الأول. لماذا؟ من أجل سلام وهمي.

تصير شبحاً. تصير كابوساً. تصير شرارة.

_اذهب إلى مكان آخر واتركنا بأمان.

*أينما ذهبت يصير ظلي مكاناً.

حين سقط حصان في الملعب الرياضي, برصاص طائش, حزنت سيدات المجتمع وهواة سباق الخيل.

وحين سقط عشرات من الناس, في البيوت, وبرصاص مصوب لم يحدث حزن في المدينة.

ليس لقتلاك صور ولا أسماء، لأن الحصان الشهيد يغطي الكون.

لماذا يسقط الشهداء بهذه الكثرة المجانية. وفي مكان غير صالح للاستشهاد؟ كثيراً ما يتحول الموت إلى مهنة. فماذا يحدث لو أعلن المرشحون للموت الإضراب عن هذه المهنة... ماذا يحدث؟

*نصير شعباً بلا شهداء. ويصير عيد الشهداء باطلا.

_ماذا أيضاً؟

*يفلس الشعراء.

_ماذا أيضاً؟

*يتلعثم الخطباء؟

_وماذا أيضاً؟

*تسقط الحكومة.

التصفية؟ لا نظن.هذه مشكلة داخلية. علاقاتنا طيبة. ومن أجل السيادة والمراعاة المتبادلة للاستقلال الوطني _ لا نتدخل. التصفية؟
لماذا ينبغي استخدام هذا المصطلح؟ هذا يسمى تحريرا. والشعار المرحلي المطروح الآن ليس تحرير الأرض العربية المحتلة من الغزاة الإسرائيليين. الشعار الآن هو تحرير الأرض العربية من الذين يشكلون خللاً في معادلة الأمن الرسمي في منطقة الشرق الأوسط. ومن الذين يذكرون الناس بأن لهم أوطانا محتلة. وهذا بالطبع ليس تصفية. من المسؤول؟ ليس شخصا وليس جناحاً في سلطة. المسؤول هو المناخ العربي الرسمي. ففي ظل هذا المناخ الراكد يصبح القمع الداخلي أمراً مشروعا ينطوي تحت لواء المحافظة على السيادة الوطنية .وزن القضية أكبر من أي كتف فلماذا نحملها وحدنا؟ هكذا يقولون.
في ظل هذا المناخ العام يصبح كل اعتداء على الوجود الثوري _ لا الفلسطيني فقط _ شأناً من شؤون البلد الداخلية.

_إذا قتلتوهم سرنا في جنازاتهم. وإذا لم تنجح العملية بسرعة نجد أنفسنا في مأزق ونضطر

للتدخل من أجل المصالحة. فمن المسؤول؟ حالة السلم غير المكتوب في الممارسة العربية. وحالة الحرب المعلنة في الجملة العربية.

أوقفتني جندية صغيرة. و سألتني عن قنبلتي و صلاتي.
اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب و لا أُصلّي.
قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟
قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة.
على ذراعي اليمنى آثار حرب.
وعلى ذراعي اليسرى آثار ربّ.
لكنني لا أحارب و لا أصلّي.
قالت الجندية : وماذا تكون؟
قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة و الصلاة.
قالت: ماذا تفعل لو ربحت؟
قلت: أشتري لوناً لعينَيْ حبيبتي.
حسبتني الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.
و تساءلتُ: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

من ما طبع على الغلاف من الخلف..


ملتقى الصداقه الثقافي
دار الصداقه للنشر
الإلكتروني
Visit us:
www.alsdaqa.com\vb